جاكلين فافير

إدمان المخدرات

م

إدمان المخدرات

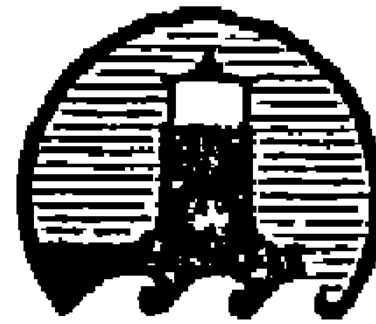
شهادة أُم تحرر ابنها من الإدمان

إدمان المخدرات

شهادة أم تحرر ابنها من الإدمان

تأليف

جاكلين فافير



مكتبة المنار
Lighthouse Book Center
& Publishing House

إدمان المخدرات **H... Comme he`roine**

شهادة أم تحرر ابنها من الإدمان

The Author: **Jacqueline Favre** المؤلف: جاكلين فافير

ترجمة : رجاء لطيف أنيس

المراجعة والتدقيق اللغوي: أ. فولاذ عبد الله الأنور

The Publisher in Arabic:- الناشر باللغة العربية:-

Lighthouse Book Center مكتبة المنـــار

17, Murad El-Sherei st., ١٧ ش مراد الشريعي

Saint Fatima, Heliopolis, سانت فاتيما ـــ مصر الجديدة

Cairo, Egypt .

Tel: (02)26395030 تليفون: ٢٦٣٩٥٠٣٠ (٠٢)

Fax: (02)22403848 فاكس: ٢٢٤٠٣٨٤٨ (٠٢)

رقم الإيداع : ١٥٨٠١ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي : 978-977-394-039-3

www.lighthouseegypt.com

المحتويات

كلمة أولى

وَهــمٌ وســرَّاب

الكتاب الذي بين يديك، يحكي قصة شاب تاه في سخافة الحياة. صوَّر لنا الروائي الروسي الشهير "ليو تولستوي"، والذي عبَّر شخصياً بأزمة ترتبط بمعنى كيانه، في كتابه المُدهش "السيد والخادم"، صورة الإنسان المنفصل عن أي ارتباط روحي أو أخلاقي، في شكل شخص يدور في دوائر عبودية أوهامه. فشخصية "فسيلي أندريتش"، الذي تاه في عاصفة ثلجية في السهول الروسية، كان يرى خلال الكتل الثلجية بيوتاً، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى أشجارٍ. ومن شجرة لشجرة، ومن وهم لوهم، ومن خيال لخيال تعب ونفدت قواه حتى الموت.

تعب "ستيفان" أيضاً وخارت قواه من الجري وراء أوهام البودرة البيضاء. لكن أوهامه كانت من صنف آخر. فسهوله التي تاه فيها كانت ملموسة ومتحضرة ولا ترحم. كان أيضاً يدور في دوائر الأوهام، مستنفداً كل قواه داخل هذه الدوامة المؤلمة، وآخذاً معه جميع من يقترب إليه. استمر على هذا

الطريق حتى اليوم الذي ترك فيه سهول التمدن. ليذهب إلى مرتفعات أجورا. حيث أعطاه الله القدرة على أن يكون الشخص الذي لم يتخيل أبداً أن يكونه.

القصة التي بين يديك، هي عن شاب كان يسير في طريقه إلى الموت، ونجاه الله من العاصفة المُهلكة، ليضعه في مكان الأمان. *لكنها ليست رواية بل قصة حقيقية*.

الراعي
ريتشارد فالو

تاريخ ظاهرة اجتماعية

تلك المواد ذات التأثير النفسي، استخدمها الإنسان منذ وجوده على الأرض. والنص الأقدم من نصوص الكتاب المقدس والذي يرجع تاريخه لسنة ١٥٠٠ ق.م. والذي يذكر تلك المواد، موجود في سفر التثنية، يحذر فيه موسى شعب إسرائيل، ويعطيهم وصية بعدم زراعة هذه المواد "أَصْلٌ يُثْمِرُ عَلْقَمًا وَأَفْسَنْتِينًا" (تثنية ١٨:٢٩). كلمة "أصل" تعني حرفياً "خشخاش" وهو النبات المُخدر الذي يُصنَّع منه المورفين والهيروين. قد يرجع أحدهم هذا لجوانب حضارية وبعض المُمارسات الوثنية، لكن ليس هذا هو مجال النقاش حول هذا الأمر.

شباب العشرينات في عام ١٩٦٨، ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية. وكان اهتمام آبائهم الأول هو توفير الأمان المادي لهم بعد فترة من الحروب والفوضى، وكان هذا هو أحد أسباب الإزدهار الإقتصادي، ولكن بسبب الاستغراق في الماديات زادت المخاوف المادية. وبعد أن توفرت لشباب ٦٨ كل الاحتياجات الأساسية أصبح طموحهم الوصول لما

هو أبعد من ذلك، ولكن لم تتمكن الماديات وحدها من تحقيق الشبع والاكتفاء لهم. وبشكل متناقض أدى هذا الأمان المادي الجديد إلى تقليل نسبة الاحتياج للقيم الأخلاقية المُطمئِنَة. وأصبح ما يتعلق بالله والدين، حاجزاً ومعرقلاً للحرية الشخصية. وأصبح الحقل مناسباً جداً لاستقبال روحانية جديدة تخدم الذات والأنا وتدعو للحرية الشخصية، وتسمح بتدمير كل حدود الحاضر وإذا أمكن المستقبل أيضاً.

أصبح استهلاك واستخدام المؤثرات العقلية والنفسية، عنصراً أساسياً في البحث عن هذه الحرية، وتسبب في تساؤلات وشكوك حول سير عمل المجتمع.

واليوم ومع التقدم التكنولوجي الهائل، وإمكانية الوصول للمعلومات والمعرفة، والتطوير المُدهش في الاتصالات الإلكترونية، أصبح ما ينقص الإنسان هو الآذان المُصغِيَة. وبما أن العولمة لا تهتم بوجود الحدود والاختلافات الإقليمية، فهي كذلك لا تحتاج للفرد، ولا تنشغل باحتياجاته.

ووسط هذه الوفرة والرخاء، أصبح إنسان القرن العشرين يحتاج إلى إصلاح وإلى معرفة هويته الحقيقية.

وهذا البحث عن الحرية الفردية، قلل من أهمية وحدة العائلة، وروج لظهور ما يسمى بـــ "العائلات المُركبَّة"، وبسبب التطور العالمي في مجال الأعمال، أصبحت أولوية الإنسان وما يشغله، هو التطور في التخصص المهني الخاص به وليس بيته وأسرته، مما تسبب في ترك الشباب في سن المراهقة، دون مرجع يلجأون إليه، متحملين عواقب قراراتهم الخاصة في الحياة.

والإدمان هو محاولة للهروب إلى عالم الصمت، والتوهم بأن كل الأمور تسير على ما يرام.

لكن استهلاك واستخدام المخدرات، غالباً ما ينتج عنه شكل من أشكال التواصل الداخلي (يفهمه فقط الأشخاص الذين يستخدمون المخدرات) وهذا يزيد من انفصالهم عن العالم الخارجي. فالمدمن لا يفهمه إلا زملاؤه.

وفي النهاية، وبسبب الانتماء لعالم آخر، ازدادت الهوة التي تفصله عن عائلته أولاً، وعن المجتمع الذي يرفضه ثانياً.

وينتج عن ذلك أعراض تختبيء في مشاكل كثيرة أخرى. لا تتعلق به هو فقط، بل بكل المحيطين به كذلك. ولذلك،

فبمجرد وصول المخدرات للأسرة، تتزلزل أُسس البيت وتنهار، ويحتاج الأمر لوقت طويل، حتى يُعاد بناء هذه الأسس مرة أخرى.

يوجد الكثير من الكتب، التي تتكلم عن مُدمنِين قد تحرروا من الإدمان. لكن القليل منها يتكلم عن آلام ومعاناة الآباء. بعد أن اجتازت "جاكلين" مراحل الانهيار والشفاء مع "ستيفان"، قررت أن تكتب لنا، ولكل آباء المُدمنِين عن الطريق الذي سارت فيه، حتى يفهم الكل ماذا يحدث وما يجب عليهم القيام به في مثل هذه الحالة.

بعد عشرين عاماً من العمل مع المُدمنِين، وصلت لاقتناع بأن الاختبار المسيحي مهم جداً للشفاء من الإدمان.

فالشفاء يبدأ أولاً بالتخلي عن الأمل الزائف، والأحلام التي لن تُحقَّق. والتخلي عن الوهم بقدرتنا على السيطرة على الموقف وتحسينه، ووضع حياتنا بين يد الله، الذي يعطينا حياة جديدة تسمح لنا بالتقدم للأمام وليس للخلف. وهي أيضاً أن ندفن الماضي كل يوم، ونحوّل أنظارنا من أخطائنا البشرية لنرى كمال الله. باختصار هي تُعلِّم طريقة

جديدة للحياة في علاقة مع الخالق، الذي فيه الهوية الحقيقية. وهي مدرسة ندخلها كل يوم ولا ننتهي منها أبداً.

هذا هو الذي عاشه "ستيفان"، وآخرون مثله ممن سلكوا طريقاً جديداً، أتمنى أن هذا الاختبار يكون علامة على طريق الكثيرين. لنؤمن بكلمات يسوع المسيح التي تقول "لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ" (متى ٧:٨).

نوربرت فالي

راع وخادم

متخصص في مجال الإدمان

مقدمة

لماذا أكتب هذا الكتاب ؟

ترددت كثيراً في كتابة هذا الكتاب، بسبب وجود الكثير من الكتب التي تتكلم عن المخدرات، ذلك البلاء المُعاصر والمتطفل على مجتمعنا. فقصتنا تشبه بالتأكيد قصص الكثيرين! وفوق ذلك، عدم امتلاكي لملكة الكتابة! ولكني تلقيت الكثير من التشجيع من كل المُحيطين بي، وخاصة من ابني "ستيفان"، المُحرِّض على هذا المشروع. وكان أصعب ما في الأمر، هو ذكرى هذه الفترة المؤلمة، التي أصبحت الآن مدفونة خلفنا.

ما شجعني أيضاً، هو التفكير فيكم أنتم *العائلات المكسورة* بسبب مأساة المخدرات.

- نعم أكتب :
- لك أنتَ يا من تتعاطى المخدرات، وتحاول يائساً أن تخرج من هذا الجحيم.
- ولكم أنتم أيها *الآباء والأمهات* المتألمون لعدم رؤية نهاية لهذا النفق المُخيف.

فمأساة المخدرات لا تؤثر فقط على من يتناولها، بل الأسرة كلها تجتاز هذه التجربة الحزينة.

لكني أريد أن أقول لكم جميعاً، أنه يوجد حل حقيقي للخروج من هذه الورطة الخبيثة.

الفصل الأول

أربع كلمات

كانت الشمس مُشرقة، في ذلك الصباح الجميل، من شهر يونيو عام ١٩٩٢، وكنت داخل المنزل نشيطة وممتلئة بالفرح، كان قلبي يرقص ابتهاجاً. فقد كنت أمتلك كل ما يدعوني للفرح والإشراق، بالأمس غدت مع زوجي من "إكسترم أوريانت"، حيث حانت لي الفرصة لصحبته في رحلة عمل هناك. وغداً سيقوم ابني الأكبر "ستيفان"، بزيارتنا مع صديقته "ميكي" لبضعة أيام، لنحتفل معاً بعيد ميلاده الخامس والعشرين. وسيرى لأول مرة بيتنا الجديد الذي انتقلنا إليه حديثاً منذ شهر مضى. وهذا هو أول موسم للربيع، نمضيه في هذه المدينة الصغيرة، التي تقع على بُعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً جنوب شرق باريس.

كان بيتاً له حوائط من اللون السيمون، واسعاً ومضيئاً بسبب جدرانه الداخلية فاتحة اللون ونوافذه الكبيرة. وهو يطل على منظر خلاب لحديقة تواجه عند نهايتها أحد الغابات الصغيرة.

أخذتُ الذكريات الحديثة لتلك البلدة، ذات الحضارة المختلفة عنا والتي عدنا منها للتو، تدور في ذهني أثناء إخراجي لملابسنا من حقائب السفر. وأخذت أنظف المنضدة والكراسي في الشرفة الخارجية، وصوت زقزقة العصافير المُبتهجة يتردد في أذني. كم أنا سعيدة برؤية هذه الحديقة الجميلة، وهذا المكان الرائع. وخاصة بعد أن كنا نسكن في إحدى الشقق الضيقة في باريس.

أحب شهر يونيو، فالصيف بأكمله يكون أمامنا، مع كل المخططات التي نخططها لأيامه ذات النهار الطويل. حيث تزهر الطبيعة الجميلة بلونها الأخضر وبألوانها المتعددة الجميلة. كان هناك الكثير من الأعمال التي يجب عليَّ القيام بها في الحديقة: من زرع الأشجار وبذر البذور. فلا توجد بالحديقة سوى شجرة الجوز القديمة والنبيلة والتي ورثناها مع عراقتها، وهي تعِدُ بإعطائنا الكثير من الجوز هذا الخريف.

كان الحبيبان قد وصلا إلى أحد المقاطعات السويسرية بالمترو، حيث سيذهبان في المساء لحضور إحدى الحفلات الكبرى *للهارد روك*. لا أحب كثيراً هذه الحفلات، بسبب

الموسيقى الصاخبة التي تمتاز بها، والتي تنقل لأغلب مستمعيها العنف، وتحث وتشجع على تناول المخدرات. لكني في النهاية، أحاول مجاراة العصر حتى يتسنى لي فهم الشباب!

عرض عليهما أحد الأصدقاء، أن يبيتا في شقته الصغيرة في باريس. وسيذهب زوجي في اليوم التالي لإحضارهما بسيارته. لازالت هذه الذكريات حية في ذهني وكأنها قد حدثت بالأمس. فقد كان اليوم يوم الأحد جميلاً ومُبهجاً، كانت السماء زرقاء صافية، إلا من بعض السحب الصغيرة المتناثرة هنا وهناك في السماء. لكنها لم تستطع أن تُلقي بظلالها على رسومات الخالق المُتآلفة والمُتناغمة في خليقته. وقد جهزت الغداء بحرص، لكن لم تكن صحة "ستيفان" في أفضل حال. ولم تكن لديه شهية لتناول الطعام على الرغم من أن "لوغراتين دوفينوا" هي أكلته المُفضَّلة. لقد فضل أن ينام لبعض الوقت.

لم يكن الأمر خطيراً، فبالنسبة لي أمر عادي أن يكون مريضاً ومُتعباً من السفر. وقد تناول الطعام في وقت متأخر. حكت لنا "ميكي" أن "ستيف" (هكذا كانت تطلق عليه)

لم يستطع البقاء في الحفل حتى نهايته، فقد كان يشعر بالتعب، وأنها حضرت الحفل حتى نهايته بمفردها، وذهب هو إلى الشقة الصغيرة لينتظر عودتها هناك. أصابتني هذه القصة القصيرة بالكثير من الاندهاش، فكيف يترك الحفل قبل نهايته، وقد قطع هذه المسافة الكبيرة من جنيف إلى باريس خصيصاً، لحضور هذه المجموعة المُفضلة لديه من عازفي الروك! ولهذه الدرجة تحب "ميكي" هذه الحفلات، حتى تُفضل البقاء في الحفل والرجوع بمفردها إلى الشقة، التي تقع في هذه المدينة الكبيرة والغريبة عليها؟ لكني لم أرد أن أُعلِّق كثيراً على ما سمعته للتو، والذي لا يعد ذا أهمية كبيرة. وفضلت ألا أتدخل في شئونهما!.

ذهب "ستيفان" إلى النوم في الدور الأرضي، ندمت لأني لم أدفعه للاستيقاظ والاستمتاع بفترة ما بعد الظهر الجميلة والمشمسة. تمددت مع "ميكي" باسترخاء على الكراسي المصنوعة من القماش المقلم بالأبيض والأزرق، وأخذنا نثرثر ونتكلم في كل شيء وفي لا شيء. أخذت أريها ألبومات الصور، وكانت سعيدة بأن ترى صور "ستيفان" وهو طفل صغير، وكنت فخورة جداً بأن أريها إياها. كانت

لـــ "ميكي" أصول هندية، وهي يتيمة، وقد تبنتها عائلة سويسرية، وهي حين كانت في السادسة من عمرها كانت جميلة جداً، شعرها الأبنوسي الطويل والجميل يحيط بوجهها الداكن، وأسنانها ناصعة البياض تبرق في تباين مع عينيها السوداوين الواسعتين.

انضم إلينا "ستيفان"، لم تتحسن حالته، وكان من الواضح أنه يحاول القيام بمجهود كبير كي لا يُظهر تعبه ومرضه. ذهبت لأفتش له في صيدلية المنزل، على دواء يُخففٍ من آلام المعدة.

وفي الغد، كان عيد ميلاده، لكنه كان لايزال مريضاً جداً لدرجة أنه لم يبدُ عليه الفرح. ولم يستطع حتى أن يقف هادئاً في مكانه. كان يتحرك طوال الوقت جيئة وذهاباً داخل المنزل، يلف ويدور، يصعد وينزل على السلالم مرات عديدة بلا توقف. كنت محتارة بسبب رؤيته في مثل هذه الحالة، وعاجزة عن مساعدته وتخفيف آلامه. لم يكن رد فعل "ميكي" قوياً، وكأنها معتادة على هذه الحالة. وهذا ما أدهشني كثيراً! شعرت بأن هناك أمراً كبيراً يحدث في وسطنا.

كان زوجي مشغولاً في مكتبه، بينما كنا نحن جالسين في الشرفة الخارجية. قمت بتزيين الطاولة بشكل وذوق رفيع، محاولة أن أدخل السعادة إلي قلبه، وأن أخفف من جو التوتر الموجود في المكان. رأيت مرة أخرى "ميكي" تجلس القرفصاء، عاقدة أصابعها الجميلة والمقلمة بحرص شديد. وفجأة، قالت لـــ "ستيفان" الذي كان يعبر الشرفة جيئة وذهاباً:

- لابد أن تخبرها.

لم يرد عليها. كان مريضاً ولم يكن راغباً في الكلام، كان هذا ما يبدو لي. فتساءلت بانزعاج وحتى لا أفوت الفرصة، ولأزيح جو الإحراج الدخيل على حفلنا:

- تخبرني بماذا ؟

لم يجبني أحد، فكررت السؤال من باب الفضول:

- ما الذي يجري هنا ؟

ساد صمت ثقيل كالرصاص. ودون أن أنظر إليها، قالت فجأة وهي تتنهد بصوت مسموع:

- *إنه يعاني أعراض الانسحاب!*

تجمــدت في مكاني، وحملقت عيناي، وشل صوتي، فقد

اخترقت هذه الكلمات الأربع قلبي كالسهم الطائش. وشعرت أن الأرض تنسحب من تحت قدمي، وفجأة، سقطت على المقعد. وبقيت في مكاني ساكنة مثل الحجر!.

حتى هذه اللحظة كنت أعيش في جهل تام، والآن وبهذه الكلمات الأربع التي حلت بي مثل العاصفة، أدركت فجأة كل شيء. ولم يكن من الضروري عليَّ البحث وإكتشاف معنى هذا التعبير *"أعراض الانسحاب"* فقد فهمت مباشرة معناها. والقنبلة المتأخرة انفجرت أخيراً !.

خبطت رأسي هذه الكلمات الأربع، وهزت كل جزء من كياني. وسرَّت قشعريرة في كل جسدي. أظن أنني في تلك اللحظة أخذت أرتجف. وأصبحت كل الأمور من حولي غير واضحة المعالم، وفقد الربيع بهجته وبريقه. ولم أستطع الشعور بدفء أشعة الشمس التي كانت تُداعِّب جلدي، وحجبت السماء لونها الأزرق، وبهتت ألوان الزهور وأوراق الشجر من حولي. وارتفعت نغمات النشاز الصاخبة في موسيقى السعادة، التي كانت تلعب حولي. وفوق الطاولة، بدأت تورتة عيد الميلاد، والتي كانت من الآيس كريم، في الذوبان وتحولت ببطء إلى كريمة فاترة. فبعد كل ذلك، من

سيكون له شهية لتذوقها؟ وأصبح كل شيء مشوشاً أمام عيني، لكني في هذه اللحظة كنت على يقين بأنني لا أحلم.

بدون سابق إنذار، وبدون أية محاولات سابقة للتخمين، وفي لحظة، كلحظة تقليب صفحات الكتاب، وجدت نفسي أُدفع دفعاً داخل عالم آخر، وأواجه مجالاً لا أعرف عنه شيئاً. أردت أن أوقف الزمن، وأعود مرة أخرى للماضي حتى لا أصل أبداً لهذه الكلمات الأربع، التي أخذت ترن بقوة وبعمق داخل كياني دون أن تفارقني. ولم يكن هناك عبارات أخرى معها، وأخذت كل الأشياء تلف وتدور بشكل بشع حول هذه العبارة. انشطر قلبي، وأصاب أحشائي وجع مؤلم. فقد أعياني هذا الأمر إلى أقصى درجة.

صمتت حنجرتي، وأصبحت بلا صوت. رأت "ميكي" ذهولي وفي محاولة منها لاختراق جو الصمت الساحق الذي ساد المكان قالت:

– لم يكن "ستيفان" يريدني أن أخبرك.

لم أستطع النظر لابني. وقفزت فجأة وذهبت إلى المطبخ. انضمت إليّ "ميكي" ونادتني:

– "جاكلين" !

سقط مني الطبق الذي كنت أحمله في يدي. وتحطم على الأرض إلى آلاف القطع.

قلت:

- لم يحدث شيء!

ذهبت للبحث عن مقشة صغيرة وجروف، وأخذت أجمع الطبق المكسور في محاولة للتخفيف عن نفسي.

رفعت رأسي وقلت:

- ما هو... ما هو نوع المخدرات؟

بدا على "ميكي" علامات الشفقة عليَّ وقالت:

- الهيروين!

أخذت لطمات أخرى تضربني.

ماذا يمكنني القول؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ كنت مذعورة ومُحبطة تماماً، فقد وجدت نفسي في موقف لا يمكنني ولا يمكن لعائلتي تصوره. غمغمت قائلة: "لماذا؟... كيف؟". كانت هذه الكلمات الأربع مؤلمة جداً *"إنه يعاني أعراض الانسحاب"* وكانت تنهش روحي مرة بعد الأخرى بلا توقف. وقد فتحت بشكل بشع أمامي باباً على عالم مجهول تماماً بالنسبة لي، وتركتني لأرى وجهاً جديداً وحقيقة غريبة تماماً

عني وعواقبها وخيمة. وضعتني هذه الحقيقة فوق جسر معلق بين منحدرين يفصل بينهما وادٍ عميق. جسر لابد عليَّ عبوره، لأجد نفسي داخل عالم ابني الأكبر، عالم المخدرات. فقد دخلت فضيحة المخدرات إلى عائلتنا، ليس إلى عائلات الآخرين، بل إلى عائلتنا نحن! اعتقدت وقتها أننا الوحيدون في العالم الذين ضُربنا بهذه البلوى. كنت خائفة. "كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ كيف لم أستطع التخمين من قبل؟ كيف لم يكن لديَّ أي جزء من الشك والاشتباه في الأمر؟" كل هذه الأسئلة كانت تلف وتدور في رأسي. شعرت بالغباء، وبالخجل لظهوري بمثل هذه السذاجة!

وبسبب طبيعتي وشخصيتي، التي لا تحب ولا تقبل الهزيمة، لم أستطع ولم أقبل الانتظار مكتوفة الأيدي، شعرت أنه يجب عليَّ القيام بأمر ما، وبرد فعل قوي. وبثقة وكأن الأمور خاضعة لسيطرتي وتحت سلطان يدي، قررت أن أحل المشكلة. ولأن شخصيتي إلى حد كبير إيجابية، أو ربما لأن عقلي الباطن يرفض رؤية الأمور بلون أسود، ولا أحب تهويل الأمور. خشيت من إخبار زوجي آملة أن الأمور يمكن أن تعود بسرعة لمسارها الطبيعي، وبما أن مشكلة

"ستيفان" ليست سوى أمر عابر، فلا جدوى من إقلاق زوجي.

أخذ "ستيفان" يراقب بقلق رد فعلي. كان مُحرجاً ومع ذلك شعر بالارتياح لأني عرفت الأمر. ولكنه لم يقل شيئاً. وبالنسبة لي لم أكن أعرف إلى أين أتوجه؟ وماذا ينبغي أن أقول؟ أو من ألوم؟ لم يخطر على بالي شخص معين يمكنني اللجوء إليه. كنت فقط أعاني من مشاعر الشفقة على النفس، فحالته كانت مزرية وملامحه جعلتني أشعر بالإعياء.

لم أستطع إخفاء الحقيقة طويلاً عن زوجي، على الرغم من رغبتي في عدم إخباره أبداً بالأمر. إلى جانب إنه وسط هذا الجو الثقيل والمتكتم، بدأ يشك بأن هناك أمراً ما. ولذلك قررت إخباره فقلت له بتردد:

– هناك أمر أريد أخبارك به... أمر خطير...

بسبب إحراجي وخجلي قلت له بدون توضيح:

– "ستيفان" ... مدمن للمخدرات.

تمنيت ألا يستجوبني كثيراً، كلماتي كانت تحاول إخفاء مشاعري، لكن وجهي الشاحب كان يُظهِّر ما في قلبي. بدت هذه الأخبار غير واقعية بالنسبة له، وبدأت نفس الأسئلة تهز

كيانه:

- مستحيل! كيف؟

كان لابد علينا التحرك في أسرع وقت. لكن كيف نبدأ؟

كان يجب أن يستقل "ستيفان" و "ميكي" القطار يوم الثلاثاء مساءً ليذهبا إلى لوزان. ولذلك كان يجب، في المقام الأول، أن يشعر "ستيفان" بالراحة حتى يمكنه مواصلة الرحلة. لم نكن نعرف دواء في منطقتنا، وخاصة أن الأمر جديد علينا. فأخذت أقلب بطريقة عشوائية دليل التليفونات، حتى اخترت اسماً. كان من المستحيل أن أجد موعداً مع أحد الأطباء في نهاية ذلك اليوم، فمن المحتم الانتظار حتى الصباح. لكن الانتظار كان مستحيلاً! أخذت أتصل بكل أرقام الأطباء (الممارس العام) في المنطقة، لكن بلا جدوى. وفي النهاية، قفزت داخل السيارة وطلبت من "ستيفان" أن يرافقني وبسرعة وصلنا إلى عيادة طبية لمنزلنا. كانت الموظفة واقفة خلف مكتبها تتحدث في التليفون. كان يبدو أن حديثها لا يتعلق بالعمل، فبدأت أظهر لها نفاد صبري بأن أخذت أنقر بالمفتاح على المكتب، وبأن أتنهد من حين لآخر في المكان الفارغ، الذي يسوده اللون الأبيض، والذي أغلقت

أبوابه. وعندما لاحظت نفاد صبري، تركت أخيراً السماعة للحظات وقالت لي:

- ماذا تريدين؟

قلت لها بضيق واضح.

- هل هناك دواء متاح لإبني؟... فقد تورط في إدمان المخدرات...

تعجبت من نفسي، ومن قدرتي على نطق العبارة الأخيرة. أعطاني رد فعلها المندهش انطباعاً وكأنها تسمع كلمة *مخدرات* للمرة الأولى. ردت قائلة:

- لا، أنا آسفة، لابد من أخذ ميعاد مسبق.

ثم رجعت لاستكمال حديثها المُمِّل في التليفون، وفي نفس الوقت أخذت تقلب في دفترها الضخم لتبحث عن ميعاد متاح. كان ردها له تأثير الدُش البارد عليَّ. فقد كانت بعيدة تماماً عن قلقي. ولأول مرة شعرت بأنني وحيدة في هذا الموقف، وأدركت أيضاً أنه يجب أن أتدبر هذا الأمر بمفردي. شعرت بأنني الأم الوحيدة في هذا العالم، التي عليها مواجهة هذه المشكلة. انقلبت حياتي رأساً على عقب. لم تكن هذه السيدة تفهم الوضع، ولم تكن تريد أن تفهم. في

الحقيقة، كنت أشعر بالغضب الشديد منها! فقد أدهشني فقرها للشفقة وعدم الاكتراث بالآخرين. قلت لها بإشارة توحي بعدم رغبتي في الحصول على الموعد:

- لا أريد.

وكأن الأمر أصبح فجأة غير مهم. وبإحباط شديد خرجت.

لم يكن مُمكناً شراء الأدوية التي اقترحها "ستيفان" أو بدائلها من الصيدليات دون روشتة طبيب. ولذلك كان علينا انتظار موعدنا مع الطبيب الممارس في الغد. لكن للأسف حالة "ستيفان" كانت سيئة للغاية، تركني "ستيفان" أفعل ما أُريد، لكنه كان يعرف جيداً أن هذا لن يجدي. فهو لم يكن يحتاج لدواء، بل إلى أمر واحد فقط وهو *البودرة البيضاء*. لم يكن يريد أن يحيرني، ولم يكن يريد أن يسبب لي الألم، أو يورطني. كان يجتاز أعراض الانسحاب، وكنت أجهل هذا الإحساس تماماً.

ومع بزوغ فجر الغد، توجهنا سريعاً لمكتب الممارس العام. كانت الأسئلة التي يسألها لــ "ستيفان" توحي وكأنه يجهل تماماً هذه المشكلة، ويجهل تماماً حقيقة المخدرات،

وكأنه يواجه هذه المشكلة للمرة الأولى. كانت إجابات "ستيفان" غير واضحة، ولم يكن راغباً في التكلم عن حياته الخاصة. وكانت الأسئلة التي يطرحها الطبيب تركز على أمور نظرية ولا تصل إلى أي نتيجة. وبعد أن نفدت قدرتي على الاحتمال والصبر، قاطعته طالبة منه أن يكتب له أي نوع من المهدئات، ليمكنه أن يستريح ويذهب عائداً إلى مكانه. ثم بعد ذلك سنرى ما يمكن عمله! ومع ذلك، لم يكن لكلامي جدوى، كنت أظن أن هذا سيقنع الطبيب بإعطاء حل سريع للمشكلة. كنت أظن أن كل شيء سيصبح على ما يرام طالما قد عرفت بالأمر.

قبل أن نوصلهم بالسيارة إلى محطة القطار، حاول "ستيفان" بكل قدرته أن يطمئنني أنا وزوجي:

- لن أتعاطى المخدرات مرة أخرى، ستساعدني "ميكي" حتى أتوقف عن تعاطيها. من فضلكما لا تقلقا عليَّ.

كان متضايقاً وفي نفس الوقت مرتاحاً، لأننا عرفنا حالته. كان متألماً، كنت أظن أنه يفضل أن أعرف أنه نادم، على أنه لم يكتشف مشكلته مبكراً. كنت أريد أن أعرف مبكراً، لكنه كان يميل إلى عدم الكلام، واستطاع أن يُخفي الأمر.

إلى جانب أنه لم يكن في حالة صحية مناسبة تسمح له بالإجابة عن أسئلتي. ولذلك حرصت على ألا أعذبه أكثر من ذلك.

على رصيف القطار، نجح ابني في طمأنتي وحصل على ثقتي. وهو مطمئن إلى حد كبير، أنني أودعه بمشاعر الشفقة.

الفصل الثاني

عودة إلى الماضي

أدركت بسرعة أن المخدرات نتيجة مرئية لأمور أخرى غير مرئية وعميقة. وبسبب هذا الأمر، شعرت بلا شك بالمسئولية عما حدث، لم أكن في حاجة لإجراء تحليلات كبيرة، لحياة الطفولة والمراهقة لابني الأكبر، لأكتشف الأسباب وراء ما يتعرض له الآن. لكن هل نشأته فعلاً هي السبب وراء ذلك؟ حاولت أن أقنع نفسي أن ما يمر به إبني ليس بالضرورة نتيجة نشأته داخل ظروف عائلية صعبة مثل التي تعرض لها. لكني ـ كأم ـ شعرت بالمسئولية على الرغم من كل الظروف التي استطعت التفكير فيها وتخيلُّها. لماذا لم أستطع رؤية هذا الأمر وملاحظة سلوكياته الغريبة؟ وبكثير من القلق، أخذت أطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال، عمن هو الملُّوم في هذا الموقف.

اخذت أسترجع أحداث الماضي، هل كان سيُمكنني تغيير مجرى الأحداث، لو كنت قد عرفت من البداية أن هذا سيحدث؟ لم تكن لهذه الاقتراحات أي جدوى. لكن شعوري

بالذنب دفعني لإختلاق مثل هذا السيناريو، للإجابة عن أسئلة *ماذا لو كنت* ... ماذا لو كنت اكتشفت المشكلة من اليوم الأول ... ماذا لو توقعت المشكلة ... ماذا لو كنت أستمع له بشكل أفضل ... ماذا لو كنت حذرة ويقظة أكثر؟ اخذت أبحث بإنفعال عما تسبب في وصول إبني الأكبر إلى هذه الحالة. أخذت أراجع كل السنوات الماضية في سويسرا، وأبحث في ذاكرتي عن كل حدث، وأتفحص في أقل التفاصيل.

لم يستقبل إبناي محبة من أبيهما، الذي لم يكن موجوداً حولهما. فمنذ كان "ستيفان" و "أنطوني" صغيرين، طُلِّقت من أبيهما وكان عليَّ مواجهة الانفصال، ومشاعر الرفض التي سببها لي أبوهما. وجعلني هذا أصب كل حبي وعواطفي على طفليَّ الصغيرين. وكان عليَّ أيضاً أن أعولهما بمفردي، فلم يكن لديَّ دخل ثابت يكفيني حتى لشراء الطعام، وحاربت بمفردي من أجل تعليمهما تعليماً جيداً، فأخذت أعمل بكل طاقتي لأوفر لهما احتياجاتهما.

كان هذان الطفلان الأشقران، ذوي العيون الزرقاء، كل ما أملك في الحياة. أتذكر أنهما كانا طفلين سعيدين

ومبتهجين، ولكني أتذكر وجهيهما أيضاً في أحيان كثيرة يكسوها الحزن. فالصورتان قويتان في ذهني، ولا يمكنني نسيانهما وتلاحقاني لوقت طويل، واليوم أشعر بالألم مرة أخرى حينما أحاول وصف هاتين الصورتين، الفرح والحزن.

عندما كان "ستيفان" في الرابعة من عمره، انتابته مشكلة صحية واضطررت أن أتركه في إحدى المستشفيات الخاصة بعلاج الأطفال، والتي تقع فوق أحد الجبال. فالهواء النقي والمنعش فوق الجبال يساعد على الشفاء ويخفف من حالته المرضية المزمنة. في نهاية إحدى مرات زياراتي له، وفي لحظة تركي له، سلمته بيديَّ للممرضة المسئولة عنه. وبرضى وبدون أن يبكي، أخذ يراقبني أنا وأخاه الصغير الجالس في عربة الأطفال ونحن نُغادر المكان. وعند خروجنا نظرت إلي وجهه الذي كان يلصقه بالنافذة الزجاجية لحجرته، ووجدت الدموع تملأ وجهه وتسيل على وجنتيه التي يغطيهما الاحمرار. لابد أنه كان يظن أني قد تركته وهجرته، ولابد أن حزنه في ذلك الوقت كان كبيراً. قلت له إنني سأعود عن قريب لأصطحبه إلى البيت، لكن

هذا الكلام لم يعزيه ولم يطمئنه. لم يكن يفهم السبب الذي دفعني لأتركه هناك. كانت عيناه الحزينتان تسببان لي الألم الشديد للدرجة التي دفعتني إلى العودة إليه وطلب اصطحابه معي إلى البيت في ذلك اليوم. لكن الممرضة أقنعتني أن ذلك سيزيد من فترة مرضه، وهذا سيجعل فترة تواجده بالمستشفى تطول.

أتذكر أيضاً "أنطوني" في صباح أحد الأيام بينما كنت أستعد للذهاب إلى العمل، وهو في سن الثالثة من عمره، يقف على عتبة باب المنزل، ويمسك بيديه الصغيرتين مؤخرة فستاني بكل قوته. وينظر إليَّ في توسل بعينيه الممتلئتين بالدموع، ويقول لي: "ماما... ماما لا تذهبي إلى العمل!" لا يمكن لشيء أن يكسر قلب الأم مثل هذه الكلمات القليلة. لكن موقفنا المادي الصعب للأسف لم يترك لنا خياراً آخر.

بعد فترة طويلة من تنقل ولديَّ يومياً من هنا وهناك، اخترت أن أطلب من إحدى الفتيات أن تسكن معنا في البيت. حتى يمكنها أن ترعى ابنيَّ بالنهار، وأيضاً تقوم بالأعمال المنزلية.

كان هذا حلاً عادلاً حتى بعد أن يبدأ الأولاد في الذهاب إلى الحضانة، لأنها ستكون موجودة في البيت انتظاراً لخروجهما من الحضانة. كان والديَّ اللذان يعيشان في الناحية الأخرى من المدينة، مشغولين دائماً بأحفادهما الصغار. وعندما يكون الطقس جميلاً، فإنهما يصطحبان هؤلاء الأحفاد إلى البستان الصغير الذي يملكانه.

كان هذا يسبب سعادة بالغة للطفلين، فقد كانا يستمتعان بتقليد جديهما وهو يهتم بالزرع، ويروي أحواض الخضروات، ويتسلقان معه الدرجات الأولى من السلم الذي يستند على شجرة التوت. كان جدي يزرع العنب، ولذلك كان أبي يحب قضاء وقت فراغه في هذا البستان الصغير، والذي تحيط به مزارع العنب. وقد زرع أبي حول البستان شجر الفواكه، وقد بنى بنفسه وسط هذا البستان كوخاً صغيراً من الخشب البني الداكن وجعل فيه نافذتين مربعتين لهما مصراعان من الخشب ذي اللون الطوبي ليدخل النور للكوخ. وقد أعطى الكوخ اسم "لا كابيت"، وكان هذا يميز البيت الصغير وسط مزارع العنب. كنا نحب جداً أن نتقابل معاً في هذا المكـــان الريفـــي الجميل كعائلة ، أبواي وأختي

"مونيكا" مع إبنيهما الاثنين، "نتاشا" و "أندري".

كنا نساعد أبي في جمع الفاكهة: التوت البري، والعليق والعنب، ونأخذ فترات للراحة نتناول فيها وجبات سريعة على المائدة الكبيرة التي صنعها من الخشب. تحت شجرة البرقوق التي تحتضن ساقها شجرة اللبلاب، وكان هناك سخان قديم تحت القدر الكبير الذي يحتوي دائماً على الماء الساخن، لعمل كوب لذيذ من الشاي أو لغسل الأطباق في المكان المخصص لذلك خلف الكوخ في النافورة القديمة التي تحولت إلى حوض للغسيل. كان أبي ماهراً في كثير من الأمور اليدوية، وقد صنع ركناً خاص بالأطفال الصغار به أرجوحة مصنوعة من الحبل علقها على فرع أحد الأشجار الكبيرة، كان المكان يملأه الأطفال باللعب، كانوا يلعبون لعبة الغميضة، يختبأون ثم يجرون حول الشجرة ليمسك أحدهم بالآخر.

تحركت ذكريات السنوات الجميلة لطفولة أولادي بذهني، صور لشاطيء السعادة الهاديء، على حد سواء مع ظلال عدم الأمان والقلق. وكثيراً وطوال فترة المراهقة، كنت أشعر بالقـــلق ، كانت محاولاتي لأخذ دور الأب في حياتهما

أمراً صعباً عليَّ وأبعد من متناول يدي.

في ذلك الوقت، كنا نعيش في أحد المدن المميزة بجمالها، والتي تقع بالقرب من بحيرة ليمان. كنا نسكن في شقة لها ثلاث شرفات تطل على ثلاث جهات مختلفة، كانت مشاهد طبيعية ساحرة: ففي الشرق والجنوب تمتد البحيرة مع سلسلة جبال الألب التي تسودها القمة البيضاء الضخمة والرائعة، والتي يغطيها الثلج منذ الأزل، ومن جهة الغرب نرى القرية والتي يتغير شكلها وألوانها من موسم إلى موسم. كل ذلك إلى جانب تمتعنا بمنظر شروق الشمس وغروبها الخلاب طوال الوقت. في أوقات الهدوء وفي أوقات العواصف، يمكننا الاستمتاع بالبحيرة وهي ساكنة زرقاء اللون أو هائجة يسودها اللون الأخضر. ورغم أن المراهقين لهم رؤية مختلفة لجمال الطبيعة في عالمنا، إلا أن إبنيَّ كانا يعتبران أنفسهما محظوظين.

– قال "أنطوني" عندما فتح عينيه ورأى الكرة الحمراء الكبيرة في الأفق والتي يستطيع رؤيتها وهو نائم على سريره: حسناً، الشمس تطلب مني أن أنهض من فراشي!

بسبب عملي، كنت أعيش حياة نشطة جداً وبدأ إبناي بشكل

واضح يعتمدان خطوة خطوة على نفسيهما. ووجدت أنه صعب عليَّ ممارسة سلطاني عليهما خاصة بسبب غيابي فترات طويلة عنهما لانشغالي في العمل مما أعطاهما حرية كبيرة. كان من الضروري عليَّ مراقبة رفقائهما، لأنه في هذا السن يكون للأصدقاء تأثير كبير على بعضهم البعض. كان أصدقاء إبني الأكبر يوحيان بالثقة ذلك أنَّ مظهرهم الخارجي يبدو جيداً. بينما كنت قلقة على إبني الأصغر لأن أصدقاءه يبدو عليهم التمرد. مما كان يدفعني للحذر مع "أنطوني".

بدأ "ستيفان" يعمل في صناعة الزجاج والمرايا. ولكن بعد فترة وجيزة، لم يرق له هذا العمل اليدوي مما دفعه للتوقف. وبسبب أنه قليل العلاقات وهادئ الطبع، كانت ثقته بنفسه قليلة. وعادة كنت ألاحظ أن حياته لا تسير على ما يرام، وتسودها اللامبالاة، على الرغم من ممارسته لبعض الرياضات مثل التزحلق على الجليد والتنس والطبق الطائر. وكان خروجه أيام السبت في المساء مع أصدقائه أمراً مقدساً. أظن أنني كأي أم لم يكن يتسنى لي معرفة ما يفعله الشباب في وقت متأخر من الليل؟ مؤخراً، بعد منتصف ليل

أحد الأيام أيقظني صوت دراجة بخارية يقوده أحدهم بسرعة فائقة أمام منزلنا.

شعرت بارتياب في داخلي. وبرغبة في الذهاب والبحث عن "ستيفان" في حجرته. كانت حجرته دائماً منظمة وأغراضه فيها مرتبة. فقد كان دقيقاً ومنظماً وحريصاً. ملصقات الفريق الغنائي المفضل له *هارد روك*، المعلقة على الحائط سببت لي الشعور بالغثيان. لم أفكر كثيراً في مدى التأثير الذي يمكن أن يكون لهذه الموسيقى، لكني كنت أعرف أنها غير صحية. ولم تكن لديَّ الرغبة من قبل في قراءة كلمات هذه الأغاني أو سماع موسيقاها. عندما فتحت أدراج مكتبه لم أرَ شيئاً يدعوني للقلق. ورغم ذلك، بدأت أفكار الارتياب تنتابني. والمخدرات؟... لم تراودني هذه الفكرة ولو لجزء من الثانية. ولم يكن هناك احتياج لرفض هذه الفكرة لأنها لم تخطر على بالي من الأصل! في تلك اللحظة لم ينتابني أدنى شك حول هذا الأمر، فلم يكن هناك ما أخشاه. لم تكن المخدرات تتكلم كثيراً، أو على الأقل بشكل مفتوح. في ذلك الوقت، كان قد بدأ تحريم المخدرات في المدارس. ولم تكن المخدرات أمراً يتكلمون عنه في

وسائل الإعلام. إلى جانب أنني لم أكن أهتم بهذا المجال، كنت أظن أنه يتعلق فقط بجماعة المشردين، والمهمشين في المجتمع.

ثم جاء الوقت الذي بدأت فيه أسرتنا تفترق ولا تجتمع كثيراً. فقد رحل "أنطوني" لدراسة اللغة الإنجليزية في لندن، ثم تبع ذلك شهور من الخدمة العسكرية. أما "ستيفان" فقد استأجر شقة صغيرة، وبعد سنتين ذهب في رحلة مع "مارسيل"، صديقه الحميم، إلى آسيا في الجنوب الشرقي. كانت رحلة تسمى "حاملي حقائب الظهر"، كانا يريدان تمضية بضعة أشهر في تايلاند وماليزيا ثم أستراليا. ألم نقل كثيراً إنَّ السفر يكسب الشباب اتساعاً للأفق وخبرات عديدة! كنت سعيدة بقراره وشجَّعته على تحقيق رغبته في اكتشاف العالم. أما بالنسبة لي فقد تزوجت ثانية. ولأن زوجي كان يعمل في فرنسا، ذهبت معه للحياة في باريس، حيث أمضينا بعض الوقت في بيت مستأجر قبل أن نتمكن من شراء منزلنا الخاص. إلا أن أنوار هذه المدينة الجميلة لم تستطع أن تحل محل المناظر الخلابة لسلاسل الجبال والبحيرة التي كنت أحياناً أحن وأشتاق إلى رؤيتها. وكنت أحياناً أرغب في

سحب البيوت والشوارع الضيقة في منطقتنا بعيداً، حتى أتمكن من رؤية الأفق البعيد والخلاب للطبيعة الساحرة.

كنت أستقبل بشكل منتظم الأخبار السارة عن الرحلة حول العالم. وفي أحد الأيام، اخبرني "ستيفان" تليفونياً أنه قطع رحلته قبل أن تنتهي. لم يكن مريضاً ولم ينقصه المال، لكنه قرر أن يقطع رحلته ويعود مبكراً من هناك! اندهشت لهذا القرار، كانت لديه أسبابه والتي كنت لا أعرفها. انتظرته في مطار "جنيف" بفرح غامر وبرغبة شديدة لسماع قصص اكتشافاته أثناء هذه الرحلة. وعندما وصل، رأيت لبضع ثوانٍ دموعاً في عينيه. هل كانت هذه دموع الفرح بلقائي مرة أخرى أم أن هناك سراً مؤلماً ؟ أمضينا بضعة أيام معاً في بيت أختي. لم يستطع "ستيفان" أن يجلس في مكانه مستكيناً لبضع دقائق، بل كان يطوف ويدور داخل المنزل للدرجة التي جعلتني أشعر بالدوار. وعندما سألته "هل أنت على ما يرام؟"، أجاب قائلاً: "أنا في أفضل حال!". اقتنعت أن السبب هو حنينه للبلاد الغريبة والتي قطع زياراته لها للعودة إلى الواقع الرتيب، والذي يتضمن البحث عن العمل والسكن وخلافه.

اشعر بالامتنان الشديد لأختي وزوجها، فقد كانا يستضيفاني طوال هذه السنوات من الذهاب والعودة بين فرنسا وسويسرا. فباب بيتهما كان دائماً مفتوحاً أمامنا وكان دائماً يرحبان بنا، كان هذا البيت هو مسكننا المؤقت في سويسرا. وكان أمراً رائعاً أن يستطع "ستيفان" البقاء مع خالته وزوجها وأبناء خالته لبعض الوقت. وبعد فترة وجيزه، استطاع أن يجد عملاً ومسكناً. وبعدها تعرف على "ميكي" واستأجر كلاهما شقة صغيرة معاً. عندما سمعت هذه الأخبار السعيدة، ظننت أنه سيبدأ يستقر في حياته، لكن ظني خاب. فقد قرر مرة أخرى أن يذهب في رحلة بمفرده لمدة شهر إلى تايلاند بحجة أنه يرغب بشدة للعودة إلى هناك، ولزيارة الأماكن التي لم يستطع زيارتها في رحلته الأولى.

كنت أزور أسرتي بشكل منتظم في لوزان، وكنت دائماً ما أجد "ستيفان" متعباً وكسولاً وخالياً من الحماسة والنشاط. وعادة ما تكون عيناه نصف مغلقتين، وصوته خافتاً. كنت أرجع هذه الأعراض دائماً لافتراض أنه مرهقُ. فقد كان يعمل في مكتب البريد لفرز البريد أحياناً طوال الليل، وأحياناً طوال النهار، وكان يبرر إرهاقه هذا بساعات عمله

غير المنتظمة. وقد بدأ في ترك الرياضة. فهل يا ترى كان هذا بسبب صديقته الأقل رغبة وحماساً في ممارسة الرياضة، أم أنه لا يجد متسعاً كافياً من الوقت لهذا الأمر؟ في الحقيقة كنت قلقة عليه. ولأنه أصبح شخصاً بالغاً، لم أرد أن أضيق عليه الخناق بأسئلتي وتدخلي في شئونه. في إحدى زياراتي له، طلب أن يقترض مني بعض المال حتى يتسنى له أن يسدد التزاماته خلال الأيام الباقية من الشهر. لم أكن أعرف كيف يتدبر الأمور المالية مع صديقته، لكني كنت أثق أن هناك أسباباً كبيرة دفعته لهذا الطلب. أعطيته المال، لكني لم أرَّ المال مرة أخرى!

سألت نفسي العديد من الأسئلة، وكنت دائماً بجانبه. واليوم أسأل نفسي مرة أخرى: "كيف لم أفكر أبداً في المخدرات، كيف يمكنني أن أكون بمثل هذه السذاجة، وكيف عميت عيناي عن رؤية هذا الأمر؟. اعترف لي "ستيفان" مؤخراً أنه طلب من صديقته ورفقائه ألا يخبرا أسرته بمشكلته. في ذلك الوقت لم يكن أنطوني، الذي لم يكن يرى أخوه كثيراً، على علم بالمشكلة، إلا أنه كان يشك في الأمر أحياناً، لكن لم يرد تصديق ما يحدث. أما "مارسيل"، صديقه

الذي كنت أعرفه، كان يعرف الأمر، لكنه لم يخبرني أبداً بالمشكلة عندما كنا نتقابل، وكان يحرص ألا يثير فيَّ الشك. في البداية تضايقت من هذا، لكنه كان سراً ولم يكن يريد أن يخون صديقه. ألا نقول دائماً أن الآباء هم دائماً آخر من يعلم! وعلى الرغم من كل هذه النيات الحسنة تجاهي، كيف لم أستطع تخمين ما يحدث؟ وحتى الآن لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال. وإجابتي الوحيدة، والتي لا أعتبرها مُقنعة، هي أنني كنت أجهل تماماً هذا المجال، ولا أعرف عن أعراض المخدرات أو عن سلوكيات المدمنين شيئاً.

الفصل الرابع

الخمسمائة كيلومتر

بعد أربعة أسابيع حدث أمر مزعج، لم يكن كالحجر الصغير المُلقى وسط المياه الهادئة الذي يسبب تعكيراً للماء، بل كان شيء عنيف مثل الصاعقة الكهربائية التي قد تُصيب أحدهم في إحدى الليالي العاصفة. فعندما عدت بعد ظهر يوم الجمعة من التسوق، وصل زوجي ممتلئاً غضباً وقال لي:

- ابنك يتناول المخدرات!

كان هذا مثل إطلاق موجة عاتية تأتي بقوتها وتخبط أحد الصخور. ورغم أنه لم يكن أبا أولادي، إلا أن زوجي كان يحبهما ويشترك في أمورهما كأنه أبوهما. إلا أن كلمة "ابنك" أخذت كل أبعادها ووضعتني أمام مسئوليتي كأم، وهذا ما كان يشغل كياني كله. لم يكن هذا هو رعبي الأول، إلا أن هذه الأخبار التي تلقيتها كانت أكثرها ضراوة. كنت متضايقة جداً، وكأنني أسلخ حية بسبب هذه الحقيقة.

كنت مشوشة وممزقة بين خيارين، سببا لي صراعاً حقيقياً جعلني أقضي عطلة نهاية الأسبوع في تشويش كبير.

"ستيفان" للمخدرات، ويعتمد ذلك على كمية المخدرات وجودتها وتغير أسعارها. أحياناً كان "ستيفان" لديه المال الكافي للمخدرات. لكن في معظم الأحيان، كان لابد أن تساعده "ميكي" عندما لا يتوفر له المال لشراء المخدرات.

أما بالنسبة لي، فقد كنت لا أعرف ماذا يمكنني عمله. من جهة، كنت أشعر بالذنب لأنني لست في المكان الذي يمكّنني من مساعدته وتقديم العون له. كان يضايقني أن الأمور خارجة عن سيطرتي. ومن جهة أخرى، لم أتمكن من ترك الأمر والاستسلام له؟ فكان من الصعب عليَّ أن أقتنع أن هذا ليس دوري، كانت "ميكي" تعيش مع "ستيفان" وكانت في مكان يمكنها أن تساعده. بالإضافة إلى أنني لم أرد أن أتطفل كثيراً على حياتهما وأتدخل في مشكلتهما التي يحاولان البحث عن حلها بأنفسهما. كانت أفكاري مرتبكة ومشوشة، كنت وكأنني أطفو على سطح بحر من الشك وعدم اليقين.

منذ أن وصلت إلى "أوزوار لا فيريار"، لاحظت وجود إحدى الكنائس الإنجيلية. على الرغم من أنني لم أكن أذهب للكنيسة بشكل منتظم منذ فترة طويلة، إلا أنه انتابتني مشاعر غريبة بالرغبة في البحث عن كنيسة في المنطقة التي نسكن

فيها. وفي يوم الأحد صباحاً، في طريق عودتي مع زوجي بالسيارة من إحدى الغابات القريبة التي نذهب إليها كل أسبوع للتريض. وقع نظري على هذه الكنيسة والتي لم أرها من قبل بسبب وجود مبنى أمامها يقع بينها وبين الطريق. وفي إحدى الأيام، عندما كنت في وسط المدينة، وقفت أمام باب الكنيسة وتذكرت الأيام التي كنت أذهب فيها للكنيسة حيث كان البرنامج يكتب على طبق ذهبي ويعلق على باب الكنيسة.

تربيت أنا وأختي في الإيمان المسيحي. وأشعر بالامتنان الشديد لأبويَّ لأنهما علماني مباديء الكتاب المقدس، لكن في سن العشرينات، ابتعدت عن الله، وابتعدت حياتي عن التعليم المتين الذي كنت قد استقبلته من والديَّ. فالتعليم العميق الذي أخذته حماني من الشك في وجود الله، لكن حملتني الحياة بمشاغلها بعيداً عن الكنيسة، وكنت أذهب إليهما فقط في احتفالات الزفاف أو في الجنازات. ولم أستمر في طريق الله، ولكن في أعماق قلبي كنت مُدركة تماماً لذلك.

وفي صباح يوم من أيام الآحاد، في شهر أغسطس من نفس العام، دخلت هذه الكنيسة. استُقبِلْتُ بترحيب حار، زال عني الإحراج لعدم معرفتي بأي من أعضائها. وفي نفس الأسبوع، جاء راعي الكنيسة "كريستوف" لزيارتي في البيت. لم أخبره بمشكلتي، بسبب شعوري بالخزي والعار لإدمان ابني وكأنني قد فقدت سمعتي. وحاولت أن أختبيء وأصطنع أن كل الأمور في حياتي تسير على ما يرام. كنت متكبرة وأخذت أحكي له حياتي الماضية في المسيحية. وفجأة سألني سؤالاً كبيراً: "هل يعيش يسوع المسيح في حياتك؟" فاجأني هذا السؤال، وشعرت باحمرار وجنتي. وأظن أنني لم أستطع أن أخفي خجلي!

ولكني فهمت سؤاله، وعلى الجانب الآخر، لم أصل لفهم طريقة عملية للاستمرار في هذا الحديث، ولذلك أجبته بكثير من التشويش: "أنا... أنا لا أشعر بالاحتياج لهذا. فأنا امرأة إيجابية... وفي النهاية، أحاول دائماً أن أصبح كذلك. لكني لا أعرف كيف يمكنني أن أصبح أفضل". بدا حديثي معه يتسم بالغباء. في الحقيقة، كنت أتجنب بهذا الرد المزيد من الأسئلة. اتجاه قلبي نحو الله لم يتغير، وكذلك غرقي في

همومي. على أي حال استمريت في الذهاب للكنيسة بانتظام بسبب شعوري بالراحة لمقابلة هؤلاء الناس المرحبين الذين يتمتعون بروح طيبة.

الفصل الثالث

الشعور بالذنب

منذ ذلك الوقت الذي لا ينسى من شهر يونيو، أصبحت أستقبل أخبار ابني "ستيفان" بشكل منتظم. في الحقيقة، كانت "ميكي" هي من تثق فيَّ. فقد كانت معرفتي بالأمر سبب شعوري بالراحة لها، وأخيراً أصبحت قادرة على الكلام والمشاركة في المشكلة مع شخص آخر، والشعور بأنها ليست وحيدة مع هذا القلق. كانت تخشى الحديث مع والديها خوفاً من تدخل أمها كثيراً في حياتها الخاصة، خاصة أن والديها كانا يعيشان على مقرباً منهما. أما بالنسبة لي فالأمر مختلف: فالمسافة التي كانت تفصلنا عنهما بعيدة، وهذا أعطاها حرية أكثر أن تستودعني بالسِّر. قالت لي أنه استمر في تناول المخدرات، أما هو فكان يقسم لي إنه لا يتناولها.

ولأن معرفتها بهذا المجال كانت أكثر مني، فقد كانت تعرف كيف تواجه هذه الكارثة وبصبر شديد، لأنها كانت تظن أن الحب الذي تكنه له، سيحل المشكلة بسرعة. أحياناً، كانا يعيشان في فترات من الاحتياج المادي، بسبب احتياج

"هل يجب عليَّ العودة إلى سويسرا أم لا؟" هذه المرة كنت أنا من يطوف ويدور داخل المنزل. نصحني زوجي بالهدوء. مرة أخرى أشعر بالذنب لأني أعيش على بُعد خمسمائة كيلومترات من لوزان. حتى إنني قلت لنفسي إنه لو كنت أعيش في سويسرا، لما حدث كل هذا. غلبتني مشاعر الحزن، فقررت أن أستقل القطار.

في محطة قطار لوزان، وأثناء سيري في الشارع شعرت أنني مخلوق. أخذني الأتوبيس حتى شقة "ستيفان". كنت أشعر أن الناس تراقبني وأنهم يقرأون فوق جبيني "*أُم مُدمن مخدرات*". كنت أشعر بجرح أخلاقي وبذُّل وخزي يلطمني. ورغم أن السماء مُلبدة بالغيوم، إلا أنني ارتديت نظارتي الشمسية، كنت أتمنى ألا أقابل أحداً ممن أعرفهم. جئت بشكل مستتر، ولم يكن أحد في عائلتي على علم بأي شيء مما حدث سوى "أنطوني". فقد فضلت تدبير الأمر بمفردي لأتجنب الكثير من التوضيحات والتفسيرات. فقد كنت أريد تكثيف كل طاقتي ومجهوداتي للوصول إلى طريق يستطيع به ابني الخروج من هذا المأزق. ذهبت "ميكي" للحياة مع والديها بسبب التعـب والضغط تجنباً التوتر اليومي. ولذلك

أخذت مكانها لمدة أسبوع.

كان من الواضح أن وجودي لم يُسر "ستيفان" كلية. فقد كان من الصعب أن يكون بيننا حوار متبادل. كان يعطيني الانطباع بأنه يستطيع تدبر كل أموره، إلا في الفترات التي كان يحتاج فيها للهيروين. كان ينام تارة على فراشه وتارة يستلقي على الأريكة في خمول. كان يشاهد أي برنامج تليفزيوني سواء بالنهار أو بالليل. وكانت الشقة الصغيرة والمكونة من حجرتين تمتليء بسرعة برائحة الدخان. وحتى لا يزعجني، كان يذهب عادة إلى الشرفة ليدخن هناك. كان منظره سيئاً للغاية، عيناه خاليتان من التعبير، وتحيط بهما هالات سوداء وشعره الطويل يزيد من نحافة وجهه. حديثه مشوش، وحركاته ثقيلة، وغير منتظمة. نبهتني "ميكي" إلى أن أراقبه، لأنه إذا خرج سيبحث عن *البودرة*، المنتج الذي يطلبه. لكن كيف يمكنني أن أمنعه من الخروج حينما يقسم لي أنه سيخرج لشراء علبة سجائر؟ وكيف يمكنني منعه من الخروج إذا كان يهددني؟.

كنت أحاول التماس الكثير من الأعذار له عندما كان يتأخر، وإذا زاد الوقت عن الفترة التي يذكرها لي، كان الدم

يغلي في عروقي. سحقتني هذه الأحداث غير المفهومة والمؤلمة، وجعلتني أشعر بالارتباك والمسئولية عن كل ما يجري. لم آتي لقضاء الأسبوع معه لمراقبته وهو يعيش في عالمه الخاص. بل جئت للبحث عن حل لهذه المشكلة. لكن كيف يمكنني البدء؟ على الأقل يجب أن أقوم بشيء يعطيني الانطباع بأن الأمور تتحرك.

كان يجب عليه الذهاب للاعتذار لمديره، لأنه لم يكن في حالة تسمح له بالعمل. لم يكن قادراً على القيام بالعمل بنفسه، فالتمست له العذر بأنه مريض. لم أكن من ذلك النوع الذي يُقَدِر ويحب نصف الحقائق. في الحقيقة، لم تكن صحته على خير حال، إلا أنني كنت أعتبر اعتذاره عن العمل كذباً. رأيت كومة كبيرة من الخطابات البريدية قابعة ومنتظرة فوق الرفوف، اكتشفت أن هناك فواتير غير مدفوعة، وإخطارات تُذكِّره، وتذاكر. كان هذا يثير شخصيتي المنظمة وكثيرة الشكوك. أخذت أدفعه لإدراك موقفه المالي فسألته:

– لماذا لم تدفع هذه الفواتير؟

أجاب بتذمر:

– لا أملك النقود؟

أثار هذا غضبي. فقد كان راتبه جيداً جداً، وكان يمكنه دفع كل هذه الفواتير. قلت له:

- لن تتمكن من ترك هذه الديون تتراكم لفترة طويلة، يجب عليك أن تدفعها.

كان يجيبني بهز كتفيه .

شعرت بالغضب الشديد. فحسابه البنكي والذي لا يحمل سوى القليل من الفرنكات لن يُمَكِنه من دفع هذه الفواتير المتأخرة إذا تقاعد عن العمل. فعرضت أن أقرضه بعض المال ليدفع هذه الفواتير حتى لا يضطر لدفع غرامات التأخير أيضاً إلى أن يتعافى من حالته هذه. كان مظهره غير المبالي هذا، لا يختلف كثيراً عن موقفه. فعلى الرغم من أنه كان يعاني، إلا أن هذا الموقف كان هو المخرج الذي يهرب إليه من مواجهة مسئولياته.

يمكن التعرف على المُدمن، من بعض الظواهر والتصرفات التي يقوم بها، ولا يمكن الانخداع فيها. التأثير المدمر للمخدرات يعمل وبشكل خاص على العينين، وبالأخص حركة تغيير حجم الحدقة. فبسبب الهيروين تتقلص الحدقـة بشكل كبيـر. وبالتالي لا يتغير حجم الحدقة

كما يحدث عادة عند مواجهة النور أو الظلام.

كنت أستخدم انعكاس الضوء لأراقب عينيه، وكنت أحاول أن أفعل ذلك دون أن يشعر، لكن "ستيفان" لم يكن غبياً وكان هذا يسبب له الضيق إلى أقصى درجة. كان من العجيب أن ترى حدقتا عينيه لا تتسعان في الظلام وتظلان صغيرتين مثل رأسي الدبوس. ثم أنه، كانت لديه هذه العادة وهي أن يظل يفرك ذقنة لفترات طويلة من الزمن. وكنت ألاحظ تصبب بعض العرق على جبينه على الرغم من أنه بالطبيعة لا يعرق أبداً. وأمام كل هذه الأدلة، كنت أسأله:

- ستيفان، هل تناولت المخدرات؟

فيجيب في ضيق:

- أقسم أني لم أتناول شيء.

- أنا لست عمياء.

- أنت تتكلمين كلاماً لا أساس له من الصحة، فأنت لا تفهمين شيئاً.

ولجزء من الثانية، ولأن طريقته في الكلام مُقنعة جداً، كان يبدو وكأنه على حق. كنت بالفعل أجهل ما يمكنني فعله، فقد كان إنكــاره التــام يغرقني في الشك. وفي أعماق

نفسي كنت أتمنى أن يكون كلامه صادقاً.

كانت مشاركة "أنطوني" لي تخفف قلقي على "ستيفان"، وخاصة عندما كان يتأخر في الخارج، فقد كان هذا يقتلني. كان ابني الأصغر يعرف شابين من المُدمنين كانا على اتصال بـــ "ستيفان"، كان يشك في أنهما تجار مخدرات. ولأنه يعرف مكانهما كان يذهب ويطرق على بابهما. وبغضب وصرامة، جعلهما يفهمان بنبرة صوته الحادة، أنه من الأفضل ألا يحاولا التعامل مع "ستيفان" مرة أخرى، وإلا سيتعرضان للمشاكل. ولخوفهما من غضب وصرامة "أنطوني"، أخذا يؤكدان لي براءتهما. لم يكن هذا هو الحل، فبالتأكيد كان "ستيفان" لديه أبواب أخرى. ولكننا كنا نحاول فعل ما نستطيع بكل ما أوتينا من قدرة.

بدأت في إدراك مدى كبر حجم المشكلة، وبدأت في استخدام أول سلاح لديَّ. في تلك الأثناء كان "ستيفان" يزور أحد الأطباء المتخصصين في مجال المخدرات. ونصحه بشدة أن يتصل بأحد مؤسسات علاج الإدمان. وللذهاب لمثل هذه المؤسسات، كان لابد للشخص أن يذهب إليها بعد قرار ورغبة شخصية. كان لابد لهذه المؤسسات أن تعرف موقفه

الحقيقي من المخدرات. وهذا سيضع "ستيفان" أمام المرآه، وسيجعله ينظر لنفسه ويقول: "نعم، أنا مدمن مخدرات!" وأكثر من ذلك، سيتطلب منه الشجاعة ليقول: "أنا هنا بسبب أخطائي!" ولكن هنا يتضح سؤالان، هل سيقبل المواجهة وهل سيكون لديه الدافع للانتصار؟.

في البداية ولفترة طويلة، لم يكن "ستيفان" يعتبر نفسه مدمناً للمخدرات، ولم يكن أيضاً لديه الدافع للتعافي. كيف يمكننا أن نطلب من مدمن المخدرات، أن يكون لديه الدافع للتخلص من هذا الأدمان، وأن يكون لديه الإلتزام بهذا، إذا كنا نعرف أنه ينقصه الإرادة، التي تمكنه أن يقول لا للمخدرات؟ الدافع الوحيد الذي قد يكون لدى "ستيفان" هو نحن، فقد كان مستعداً للقيام بأي شيء حتى يرضينا. كنت أتألم لرؤية معاناته. وفي المرات التي تخور فيه قواه، لا أستطيع الانتظار حتى يبدأ هوَ في التحرك. فلابد له أن يفعل شيئاً.

ورغم كل الصعاب، ودون أن أضيع وقتاً أكثر، بدأت في التحرك. وبعصبية توجهت نحو دليل التليفونات، وأخذت أبحث في صفحاته. وبعد عدة اتصالات كنت فيها أنتقل من

شخص لآخر مثل كرة البينج بونج، اعطتني الخدمة الاجتماعية بعض العناوين المُفيدة، وقائمة بمؤسسات لعلاج الإدمان، تقع في الجزء الفرنسي من سويسرا. جلست على الأرض تحيط بي الأوراق والأقلام، ووضعت كل أملي في التليفون الموجود معي على الأرض. كان هناك كثير من المراكز والمؤسسات التي يمكنها المساعدة. وكشخص غريب في هذا المجال، أعطتني هذه المؤسسات انطباعاً بأنها مستعدة دائماً للرد على نداءات الاستغاثة. لكني وللأسف أدركت أن الواقع مختلف تماماً، فالأمر لم يكن بهذه السهولة.

مررت بمراحل من الإحباط مع الأمل. كان هناك الكثير من الأرقام مشغولة، أو أن الشخص المسئول يكون متغيباً، أو يكون الميعاد المتاح متأخراً جداً. كان من الصعب ضبط أعصابي بسبب عدم النظام. أخيراً استطعت الحديث مع إحدى مؤسسات العلاج والوقاية من الإدمان. أرشدني المتحدث وأعطاني نصائح هامة، ولكنه أوضح لي أن هذه النصائح ينبغي أن تكون موجهة لإبني وليس لي. ولذلك دفعت "ستيفان" ليحصل على موعد مع هذا الشخص، وكان

لابد عليه أن يذهب هناك بمفرده، فحصل على موعد تحت ضغط مني. لكني أصبت بالإحباط بسبب مقدار صعوبة الحصول على المساعدة.

على الرغم من أن هذه المؤسسات متخصصة، إلا أن الجزء الإداري فيها لا يترك مجالاً للعامل البشري. فعندما قالت لي إحدى السكرتيرات ببرود إن جدول المواعيد ممتليء حتى نهاية الأسبوع، وأن المؤسسة لا تحجز مواعيد أثناء إجازة نهاية الأسبوع، سبّب هذا الأمر لي الرعب. كانت لـــ "ستيفان" فرصة لتناول المخدرات عدة مرات قبل جلسة الاستماع، كان لديه الحافز الذي يدفعه للذهاب، إلا أنه كانت هناك الكثير من الفرص التي تجعل هذا الدافع يختفي قبل الموعد المحدد للمقابلة. ثم إن قائمة الانتظار الطويلة لدخول مؤسسة العلاج خيبت من آمالي.

في نهاية هذا الأسبوع المرهق، والذي يُعَد رحلة استكشافية لعالم المخدرات، رجعت لمنزلي مُتعبة ومُحبطة. وعادت "ميكي" للحياة مع "ستيفان"، وأخذت تحاول جاهدة مساعدته على الخروج من هذه الأزمة، وأعطاها حبه احتمالاً بصعوبة الموقف.

الفصل الخامس

فوق الهوة

عندما وصلت البيت، قمت أيضاً ببعض الاتصالات في فرنسا. ولأني عزمت أن أجد حلاً، فقد كنت أؤكد لنفسي أن هناك إمكانية حلول، لمساعدة إبني على الخروج من هذا الموقف الخطير. كان لكل مكان اتصلت به متطلباته الخاصة. باختصار ومع كل هذه المعلومات والأماكن التي جمعتها في كلا البلدين، كان لابد من الأنتقاء. هاجمتني العديد من الشكوك والحيرة، وشعرت أن شيئاً لن يفلح. ظللت في ريبة وجمود حيث إن القرار ببدء العلاج لابد أن يأتي من "ستيفان" نفسه.

ومع ألم العودة، وجدت نفسي مرة أخرى وبسرعة أقف فوق هوة عميقة. وقد تحولت الأمور للأسوأ. فقد استمرا "ستيفان" يشم الهيروين دون إنكار. كنت أظن أنه بسبب مرض الربو الذي كان يعاني منه في فترة المراهقة، والذي جعله يضطر لاستنشاق أدوية في شكل دخان، سيأخذ الهيروين بالحقن. وعندما عرفت أنه لا يأخذه بالحقن،

شعرت بالراحة، بسبب علمي بكل نتائج ومخاطر استخدام الحقن.

وافق "ستيفان" على السماح لنا بمساعدته، وذلك بمنعه من الذهاب للبحث عن المخدرات، معنى ذلك أن نظل دائماً إلى جواره لمراقبته. إلا أنه مع ظهور أعراض السحب وتأثيراته. تصبح المُقاومة مؤلمة، وعندما يشتد عليه إلحاح الحصول على الجرعة، لا يصبح راغباً بعد في مساعدتنا ويتوسل إلينا لنسمح له بالخروج. لم تستطع "ميكي" التواجد معه بشكل مستمر، فكان "أنطوني"، والذي يعيش أيضاً في لوزان، يأتي للمساعدة. كان يأتي بعد عمله ليحل محلها. كانا يتبادلان نوبات مراقبته. لم يمكنهما الراحة إلا في أوقات نوم "ستيفان". لم يكن مُمكناً غلق الباب الأمامي من الشقة بالمفتاح. لذلك ولمدة بضعة ليال، كان "أنطوني" يرقد بهدوء أمام الباب، مرتدياً حذاءه كان يقوم بدور الحارس، حتى لا يسمح لـــ "ستيفان" بالخروج، فإذا أراد "ستيفان" الخروج فلابد له أن يَعبُر فوق جسد أخيه، أو على الأقل يدفعه ليفتح الباب وبذلك يستيقظ "أنطوني".

قضيت أياماً كثيرة في قلق شديد. وعندما كان يرحل زوجي، لم أكن أغادر البيت إلا للضرورة القصوى. فقد كنت أخاف أن تفوتني إحدى المكالمات التي قد تحمل أخباراً جديدة. كنت أحياناً أرفع سماعة الهاتف لأتأكد أنه يعمل جيداً! وعندما يضرب جرس الهاتف، كنت أرتجف خوفاً. فقد كنت دائماً أتخيل حدوث أمر سيء. لم تساعدني كثيراً حواراتي الطويلة مع "ميكي" والتي كثيراً ما امتزجت بالتنهدات. فقد أعطت نفسها بالكامل لهذا الأمر، كانت مُتعبة ولا تدري ما يجب عليها فعله. أصبح الآن الحل الوحيد هو أن يعيش "ستيفان" معنا في فرنسا. ففي مدينته، يعرف الأماكن والأشخاص الذين يبيعون المخدرات ويمكنه الحصول عليها دون تعب. بينما في المكان الجديد سيضطر للبحث عن شبكة جديدة. وصلنا لهذه النتيجة دون أن نفكر في أن هذا لن يرضي "ستيفان" على الإطلاق، بالطبع، فلديه أسباب وجيهة!

أتصل بي "أنطوني" في أحد ليالي يوم الجمعة وقال:

- يجب أن يذهب "ستيفان" إلى فرنسا. فنحن لن نستطيع الاستمرار هكذا لفترة طويلة. ولا نعرف ما يمكننا فعله.

- دعه يأخذ أول قطار ويأتي بسرعة. إشتري له التذكرة، وسأعطيك ثمنها فيما بعد.

- لكنه لن يأتي. لن نستطيع أن نجبره على ركوب القطار، وإذا فعلنا فيمكنه أن ينزل في المحطة التالية.

- لم أتردد للحظة وقلت:

- سآتي أنا. سآخذ أول قطار وأصل غداً ٧:٠٦ صباحاً. لا تخبر "ستيفان" أني آتية. حتى لا يشك في الأمر ويترك البيت.

ركبت القطار، وكان ذلك بعد خمسة أيام من رحلتي الأخيرة. وأصبحت هذه الرحلة والتي مُدتها أربع ساعات بالقطار، جزءاً من روتين حياتي، ولا تزال تفاصيلها عالقة بذاكرتي. فلم أتمكن من التركيز في قراءة كتاب أو مجلة طوال الرحلة، كان الأمر برمته يبدو سخيفاً. كنت أثبت نظري على نافذة القطار، وأستمر في مشاهدة نفس المناظر الطبيعية التي تتغير فقط بتغير المواسم. في هذا الشهر من الخريف، كانت الطبيعة تكسوها اللون الداكن. كان مشهد الغابات ذات اللون البرتقالي والذهبي يزيد من شعوري بالكآبة. وكانت كل أفكاري مُنشغلة بمشكلة ابني التي

أصبحت مشكلتي أنا أيضاً. ولم يكن أي شيء آخر يهمني. وكيف لا يكون كذلك؟ فمحبة الأم لا يمكن مناقشتها. ولحسن الحظ، لم أكن أعمل في ذلك الوقت، وتعاوني مع زوجي في عمله سمح لي بالكثير من المرونة. ففي الأزمات كنت أستطيع التواجد دون أن أسبب أحباط لأحد.

وجدت "ستيفان" راقداً على فراشه. وكما كنت أتوقع، لم يكن يُحب أياً من زياراتي وعرف مباشرة معنى هذه الزيارة المفاجأة. كان في شدة الغضب. وفي السر، جمعت "ميكي" بعض أغراضه وملابسه في أحد الحقائب الصغيرة.

– ستيفان! سآخذك معي! لبضعة أيام فقط.

أضفت العبارة الأخيرة لأقلل من حدة وقع الكلام عليه.

رد بغضب قائلاً:

– لا... لا... لن أذهب معك!

– هذا لمصلحتك!

بعد الكثير من الإلحاح، قَبِلْ على الرغم منه. وقال غاضباً:

– حسناً .. لكن بشرط واحد .. أحتاج إلى جرعة مخدرات..

قلت بدهشة:

– ماذا؟

دفن وجهه في الوسادة وقال:

– وإلا... لن أتمكن من القيام بالرحلة.

كان من الواضح أنه لن يتمكن من احتمال مشقة السفر في هذه الحالة. لكنه لا يجب أن يأخذ هيروين ليتمكن من القيام بهذه الرحلة؟

– لا يوجد مخدرات هنا. خذ مهدئاً.

ورداً على ما قلته، قام من فراشه وذهب باتجاه الباب.

وأمرني قائلاً: افتحي الباب!

– ماذا، هل ستخرج؟

– لن أذهب بعيداً... لن أترك المنزل.

– إذاً إلى أين تذهب؟ وماذا ستفعل؟

لم يجب على أسئلتي. كان يجب علينا إبقاءه داخل المنزل، ولذلك لم يكن في استطاعتنا إلا أن نلبي رغباته.

– قال "أنطوني" بارتياب: سأتبعك.

نزل على الدرج ووصل إلى الدور الأرضي، كان هناك شق صغير بين صندوق البريد والحائط، سحب منه لفة صغيرة. كان قد وضع كمية من الهيروين في هذا المكان

غير المعتاد لكن متى فعل ذلك؟ لا أحد يعرف الإجابة إلا هو. وبدون أن ينطق بكلمة واحدة وكأن شيئاً لم يحدث، صعد مرة أخرى على الدرج وتبعه أخوه. وقد أصابتنا جميعاً الدهشة. كانت حيلته لا تخطر ببال. جلس على الأريكة ووضع اللفة على الطاولة، وفتحها بحرص شديد وكأنها تحوي لؤلؤة غالية الثمن، ثم ببطء وبحرص فك طرفي اللفة ثم ظهرت البودرة البيضاء. نصف جرام من البودرة يمكنها أن تلوث الجسد بأكمله وتُسممه مادياً وأخلاقياً. شيء بغيض! كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها المخدرات. وبدقة ومهارة صانع الساعات، وباستخدام سكين، وضع البودرة في خط رفيع. وقفنا عاجزين مضطرين لقبول الأمور الواقع. شعرت بقوة أننا لن نستطيع منعه من تناول المخدرات، وأدركت مدى بشاعة الإدمان. طلب منا "ستيفان" أن نتركه بمفرده. فتركناه وذهبنا إلى الصالة الخارجية، وتركنا الباب مفتوحاً. وقفنا هناك عاجزين ومكتوفي الأيدي. وجدت نفسي أقف وحيدة وبلا سند على بُعد خطوتين من إبني، الذي يشم المخدرات عاجزة عن عمل أي شيء. كان ذلك أكثر من قدرتي على

الاحتمال! بالإضافة إلى الصدمة شعرت بضيق ومذلة وعار شديد يخترق قلب الأم. فاستندت على الباب، وانفجرت في البكاء. حاول "أنطوني" و "ميكي" تعزيتي، لكن دون جدوى.

لم احتاج للانتظار كثيراً حتى ينفذ "ستيفان" القرار. ففي ثواني قليلة، أصبح "ستيفان" جاهز للسفر. ذهبنا سريعاً لمحطة القطار لنركب آخر قطار والذي يتحرك الساعة ٧:٠٢ مساءً. متجهاً إلى باريس.

ذهب معنا "أنطوني" ليساعدني في حالة رفض "ستيفان" ركوب القطار الذي لم يصل بعد! كان "ستيفان" متضايقاً جداً ولم يكن يريد الجلوس معي على نفس المقعد. كنت أختلس النظر إليه من حين لآخر وأرى الضيق والضجر على وجهه. بالتأكيد كان ينعتني بألفاظ شديدة. كنت أجلس في الصف المقابل وأراقبه، خاصة عند توقف القطار في المحطات خوفاً أن يفكر في النزول من القطار! وبعد رحلة طويلة ومؤلمة، شعرت أخيراً بالراحة لرؤية زوجي الذي كان في انتظارنا.

الفصل السادس

آلام الفطام

اجتزت بخبرتي الأولى في الفطام، والتي يسمونها *فترة الاحتياج أو أعراض الانسحاب*. ساعات من العذاب لا أتمنى لأحد اختبارها، حتى لعدوي إذا كان لديَّ عدو! تستمر أعراض الانسحاب لعدة أيام حتى يبدأ الجسد الجائع للهيروين في الهدوء ببطء. كانت هاتان الليلتان هما أكثر الليالي رعباً بالنسبة لي. كان "ستيفان" راقداً على فراشه وكان يتحرك ويتقلب باستمرار دون هوادة، كان يعاني آلاماً جسدية، وكان يعدل من جلسته بتذمر وأنين. ينام على جنبه ثم على ظهره ثم على جنبه ثم يجلس، لم يستطع أن يظل ساكناً لمدة دقيقة. كان يلهث ويصارع مع وسادته ولحافه أو يصرخ ويخبط بقبضته على الحائط. كانت التشنجات تطعنه وتنتزع كيانه وتُصيبه بنوبات شديدة من الألم، كان كل جسده منحصراً في طلب الهيروين. وكان يرتجف ويتصبب عرقاً. في أوقات كان يشعر بالبرد وفي أوقات أخرى بالحر.

كان يئن قائلاً:

- لابد أن نفعل شيء... أنا تعبان.

كنت قد أعطيته بالفعل دواءً مهدئاً وجدته في حقيبة الحمام، وأدوية منومة كتبها له الدكتور في سويسرا. وكلها لم يكن لها تأثير عليه وخفت أن أعطيه المزيد لأنني لم أكن أعرف الأعراض الجانبية التي قد تُسببها. كان "ستيفان" يعلم جيداً أن هذه الأدوية لن تؤثر في الألم، والمخدرات هي الشيء الوحيد الذي يُمكنه أن يوقف هذا الألم! كنت في غاية الذهول، ولم أكن أعرف ما يمكنني فعله في هذا الموقف. فقد شن حرباً شعواء ضد الشر، دون إمكانية الحصول على فترة راحة لالتقاط أنفاسه.

اتصلت بالدكتور، وشرحت له الموقف فهل سيمكنه مساعدة "ستيفان"؟ أرسل بسرعة أحد الممرضات لإعطائه حقنة. لكن لم تكن الحقنة مُريحة، بل على العكس زادت الأمر سوءًا، فبعد الحقنة بوقت قصير إزداد الألم ضراوة. لم يهدأ جسده قط، لأنه لم يحصل على ما يطلبه ويحتاجه. خلال أيام الألم والمعاناة هذه، وببطء شديد، بدأت موجات الألم تقل في مرات حدوثها، وكان يستطيع في هذه الأثناء أن يخلد إلى النوم قليلاً. وكنت أيضاً أستفيد من هذه

الفترات بأن أحاول أيضاً النوم قليلاً. فقد كنت مُتعبة جداً.

- لماذا تسمح لنفسك بتناول المخدرات مرة أخرى بعد اختبار هذه الآلام المُبرحة؟ فقبل أن تتناول المخدرات، ألا تذكر الآلام التي احتملتها، ألا تجعلك تتوقف؟.

- لا... فعندما أشعر بالاحتياج إليها لا افكر في أي شيء آخر. وأنسى...

- هذا غير مفهوم! يجب أن تتذكر أنك إذا تناولتها مرة أخرى فستختبر مرة أخرى هذه الآلام البشعة.

- لا أظن... فالمخدرات هي التي تسود... فهي الأقوى.

لم يستطع أن يشرح أكثر من ذلك. كان عليّ أن أُدرك أن مُدمن المخدرات لا يهمه النتائج، فهو لا يفكر في الأمس ولا في الغد. لا يوجد ماضٍ ولا يوجد مستقبل. كل ما يريده هو المخدرات، وهذا كل شيء بالنسبة له. ولا يهمه أي شيء آخر حتى تعريض حياته الشخصية للخطر. وعندما يذكر آلام أعراض الانسحاب، يبدأ في التفكير في كيفية الحصول على المخدرات، لدرجة لا تجعله قادراً على التوقف عن تعاطيها. في الأوقات التي يستيقظ فيها ولا يستطيع النوم مرة أخرى. تكون من أكثر الليالي رعباً بالنسبة له ولي

أيضاً. فعلى الرغم من أنه كان يتضايق لوجودنا، إلا أنه في أعماقه كان يشعر بالامتنان لصرامتنا وتعقيدنا للأمور. فهنا في المكان الذي نعيش فيه في فرنسا، لا يستطيع بسهولة الحصول على المخدرات. وعلى الرغم من أنه اعتاد على السفر حول العالم، لكنه لم يكن يعرف المكان ولا البيئة المحيطة هنا. وبالطبع، إذا أُتيحت له الفرصة، فسيبدأ بسرعة في الخروج والتعرف على الأماكن وتحديدها والوصول لما يريد. لكن هنا يمكننا حمايته بسهولة وهو كذلك لم يطلب أن يخرج بمفرده أبداً. فقد كنا نخرج معاً وفي المساء كان الجزء الأسفل من المنزل خاضعاً لجهاز إنذار.

كان من المهم إحاطة "ستيفان" بمحبتنا وإعطائه الثقة. كان زوجي المعلم الماهر، يأخذ ابني بين يديه. أولاً، اقترح وضع خطة لاسترجاع حياته الطبيعية، ومن ضمن هذه الخطة ساعات ثابتة للاستيقاظ. كان هذا يُشكل صعوبة عليه لأنه في معظم الأوقات كان مُرتبكاً، كان يجب عليه أن يبدأ ببعض الأعمال الجسدية. لكن كل مهمة تُطلَّب منه كانت تتطلب مجهوداً كبيراً لأنه كان شبه كسيح. أخذنا نراقبه وهو يلتقط أوراق الشجر في الحديقة: كان يتحرك ببطء ليلتقط

مجموعة من الأوراق، ثم ينحني ليضع واحدة تلو الأخرى ببطء في كيس القمامة، كان يفعل هذا بعدم اكتراث وبحركات بطيئة وكنت أشعر أنه أحد هذه الأوراق الخريفية الضعيفة، وقد قُطع من الشجرة بسبب الرياح، ويتقلب في الهواء حتى يستقر على الأرض. كنت أشفق عليه عندما أراه في هذه الحالة من السلبية وأرى جسده بلا حيوية. وقد أتعبه وأرهقه هذا العمل الذي لم يزد عن نصف ساعة. فقد سقط ابني وانحدر بشدة.

إلى جانب النشاطات اليومية، كان زوجي يتحدث معه يومياً. عادة في نهاية فترة بعد الظهر، كانا يجلسان معاً حول المدفأة والتي كانت تنشر دفئا مُمتعاً. أثناء هذه الجلسات الأسرية، كان "موريس" يساعده على إجراء بعض التدريبات الذهنية والتي تساعده على جعل ذهنه يتخلص من الانجذاب للمخدرات. كان يفحص في دوافعه حتى يحاول معه وضع مشروع وخطة لحياته. وكان هذا يتطلب الكثير من الصبر والوقت. على سبيل المثال، كان يطلب منه أن يبحث عن صور تُعبر عما يدور في ذهنه وعن كيفية تخيله لمستقبله. كان "ستيفان" يبحث في المجلات عن مثل هذه

الصور التي تخاطب تفكيره. ثم يلصقها معاً في أحد المجلدات، وكانت هذه الصور لأشخاص مثل طبيب، عامل، رياضي، مغامر، وصور لزوجين ولعائلة.

بالتأكيد مع تطبيق هذه اللعبة، استطعنا أن نرى شاباً إيجابياً كل ما يريده هو النجاح في الحياة. ثم نصحه زوجي أن يحاول التعرف على عالم الكمبيوتر، لكن يا إلهي! كان لابد أن يتعلم كيفية استخدام لوحة المفاتيح! كانت هذه اللمسات الصغيرة صعبة عليه ويحتاج وقتاً كبيراً ليكتب جملة واحدة. لكنه كان فخوراً بعمله عندما يظهر على الشاشة. رغم المجهود الكبير بالنسبة له، حيث كان يكرس مهاراته الذهنية والجسدية بقوة في مراحل التعلم. والقراءة كانت تتطلب مجهوداً أيضاً، حتى ولو كان كتاباً فكاهياً. لكن على النقيض من ذلك، كانت مشاهدة التلفاز لا تمثل له أية مشكلة.

كان يغمغم كثيراً ويقول:

– إلى متى سأبقى هنا؟

– لا أعرف. لكنك لابد أن تجدد قوتك. ثم بعد ذلك، تحتاج وقتاً لتنجح في ذلك، أنت تعرف ذلك جيداً! وإلا ستسقط مرة

أخرى بسرعة عندما ترجع للبيت.

وجد "ستيفان" الصحة وبدأت قوته تتجدد قليلاً قليلاً. خلال فترة الفطام الجسدي، لكن أعراض الانسحاب النفسي ظلت موجودة بلا هوادة. ففي أحد الأيام طلب مني "ستيفان" عبوة من الدواء على شكل بودرة والذي يحتوي على مادة الأسبرين، لم يكن يحتاجه لتسكين الألم أو الحمى، لكن مجرد استنشاق هذه البودرة يمثل عادة تعود على تكرارها لفترة طويلة. كان هذا الأمر مُحبطاً ومُؤلماً تماماً كما لتأثير الهيروين، فأثناء عملية الاستنشاق كان كيانه يغوص لبضعة ثوانٍ داخل الوهم.

أثناء هذه الفترة، شرح لي "ستيفان" كيف وصل للمخدرات. بدأ الأمر في عمر السادسة عشر، باستخدام مخدرات خفيفة عن طريق التدخين، وهي عادة العتبة التي يخطيها المدمنون باتجاه المخدرات القوية. وبعد أربعة سنوات تعرض للإغراء من قبل أحد الأصدقاء الذي عرض عليه تناول المخدرات القوية مثل الحشيش. مرة واحدة فقط... لن تكون هناك أي مخاطرة... مرة واحدة فقط! استجاب للتجربة القدرية. الدعوة الأولى للهيروين هذه لم

ينتج عنها المُتعة المُبتغاه، بل على العكس سببت له التقيؤ. وحتى يستطيع اكتشاف تأثير هذا المخدر، قرر أن يجربه للمرة الثانية، وهذه المرة الثانية قدمت له إغراء سعادة الهروب من الواقع الخارجي. فالهيروين يُعطي تأثير الهروب، بينما يكون المدمن واعياً. وبالتالي لم يتوقف الأمر عند هذه المرحلة. فدائماً هناك مرة أُخرى!.

استمر الشعور بالسعادة لمدة ساعتين تقريباً، وهذا يعتمد على نوعية وكمية الهيروين. مرت المرة الأولى، وبدأ يشعر بالاحتياج التدريجي حتى أصبح غياب المخدر ضاغطاً، وكان لابد من تناول جرعة أخرى للرجوع إلى شعور السعادة مرة أخرى. وفات أوان ارتفاع جرس الإنذار. وبدأ الإحساس بالاحتياج للمخدرات في الازدياد، وبدأت الشهوة للمخدرات تزداد، وأدى ذلك إلى المزيد من المخدرات للتخلص من أعراض الانسحاب النفسية والجسدية. وأصبحت المخدرات إحدى ضرورات الحياة. وبدأت الدوامة المُدمرة، دوامة المخدرات الساحرة. والانتصار أصبح فوق الإمكانيات، وتضمن هذا أيضاً البحث عن المال اللازم للحصول على المخدر. والمخدرات التي كانت تُسبب

الشعور بالحرية، أصبحت بسرعة هي ذاتها العبودية.

قال لنا "ستيفان" إن الاستماع لموسيقى *الهارد روك* لعبت دوراً في هذا الأمر أيضاً. فهذه الموسيقى ليست بريئة، بل هي تقوم بمناورة مستمعيها بطريقة غير واعية وتجذبهم لوهم المخدرات. عرفت لاحقاً أن المُدمن، وخاصة صاحب المزاج الحالم والتأملي، ينجذب أكثر للهيروين من أي مخدر آخر كالكوكايين مثلاً. فالهيروين له هذا التأثير التأملي. وهذه الصفة هي التي جذبت ابني.

بدأت التطبيقات والتدريبات اليومية تأتي بنتائجها. وفرحنا كثيراً عندما رأينا "ستيفان" يبدأ في الاستمتاع بحياته، وفي استرداد بعض من الثقة في نفسه. ولنثبت له ثقتنا فيه، سمحنا له بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في "لوزان" ليرى صديقته. كان في غاية السعادة ويكاد يطير من الفرح. ذهلت "ميكي" بهذا اللقاء. فقد رأته مُشرقاً مُتهللاً ومؤهلاً بقدرات جسدية جديدة، تعرفت عليه بصعوبة. واندهشت أيضاً من سماعه يتكلم، يتكلم أكثر من ذي قبل. مر اليومان دون مشاكل وفي نهاية الأسبوع التالي، كانت هي من أتت لزيارته لمدة ثلاثة أيام.

كان "ستيفان" يُحب أن يكرر القول:

- أرى النور في نهاية النفق. بالتأكيد سأخرج من هذا النفق.

ومع رؤية النهاية للكابوس، بدأ كلاهما في التخطيط للمستقبل، وبدأ في الحديث عن الزواج.

قالت ميكي:

- كانت أمي تقول لي أنني سأتزوج في عمر صغير.

لم يكن هناك احتياج لمركز إعادة التأهيل. إلا أنه لم يكن الوقت قد حان بعد لرجوع "ستيفان" لسويسرا. وبدون مقاومة، استجاب لنصيحتنا بالبقاء معنا لمدة أطول حتى يتجنب أي فرصة للرجوع للمخدرات. واستجاب أيضاً لرغبتنا في إجراء تحليل فيرس HIV. كان أمراً شرعياً أن نُفكر في الإيدز. أقسم لنا "ستيفان" مراراً أنه لم يستخدم الحقن أبداً لأنه كان يستنشق المخدرات. لكن الشك كان يملأ قلوبنا. ولم يرحني سوى نتائج التحليل السلبية.

وفي اليوم المُحدد لعودته، أخذناه أنا وزوجي في رحلة حول باريس. عندما زرنا كاتدرائية نوتردام، وجدت قلبي يصرخ إلى الله. لاحظت من على بُعد مئات الشموع البيضاء المشتعلة. كانت هذه الشموع تعكس كثيراً من الآمال لنفوس

كثيرة يائسة وفي احتياج مُلِّح، أو شاكرة لأجل التدخل الإلهي. بعيداً عن مشاعر التدين، أخذت أبحث عن نور الرجاء، لكن عيوني وقلبي كان مُظلماً، فلم أكن قد عرفت بعد النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسان (يوحنا ١: ٩).

قال زوجي:

- لازال لدينا بعض الوقت قبل موعد القطار، دعونا نذهب لنأكل معاً.

كانت البيتزا أمراً مُبهجاً لكل منا. ارتسمت على وجه "ستيفان" ابتسامة عريضة وخاصة لسعادته لذهابه لصديقته. كان يُريد بشدة أن يبدأ حياة جديدة وهذه المرة بخطوات صحيحة. لم أعرف ما يجب عليَّ أن أفكر فيه الآن، لكني كنت أريد الاتكال على التأثير الذي كان لزوجي على ابني. واعتمدت أيضاً على حقيقة وجودنا إلى جانبه لمعونته، وأنه يستطيع الاعتماد على محبتنا وتفهمنا وتدعيمنا له.

أعطيته كارت تليفون سويسري وقلت له:

- إذا واجهتك أية مشاكل، اتصل بنا فوراً حيثما كنت.

كنت مُدركة تماماً لشعوري بعدم اليقين، لأنه من جهة لم أكن أريد أن أترك الشكوك تنعكس على الثقة التي أردت أن

أعطيها له، ومن الجهة الأخرى أردت أن أحاول بكل قوتي أن أتدخل في كل فرصة لمنع تكرار ما حدث.

- أنت تعرف أيضاً رقم الطوارئ الذي يمكنك الاتصال به في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. وهو مكان مُخصص للاستماع للناس ومساعدتهم في محنتهم. من يعلم، فقد يكون مُفيداً لك أن تعرف أن مثل هذا الاختيار متاح.

وبنظرة تملأها العزيمة والرغبة في الانتصار على المخدرات، استقل "ستيفان" القطار. بينما تملأني الرغبة في رؤيته يواصل السير في الطريق الصحيح.

الفصل السابع

من أين يأتي الأمان ؟

مر شهر دون الحصول على أي راحة قلبية. وفي شهر يناير، جاء إبناي لزيارتي زيارة سريعة. كان "ستيفان" يبدو جيداً إلى حد كبير، إلا أنني شعرت أنه كسول.

سألته بتردد:

- كيف حالك يا ستيفان؟

رد بشكل تلقائي:

- على ما يرام.

أردت أن أعرف المزيد عن أحواله، لكن اضطررت لقبول هذه الإجابة البسيطة. كنت قد عاهدت نفسي أن أثق فيه، فحرصت ألا أُزعجه بأسئلتي. وكان الجميع يتجنب الحديث عن المخدرات وكأن شيئاً لم يحدث.

لم أحتج لمجهود كبير حتى أحول تفكيري للحدث الأكثر بهجة في هذا الوقت. فقد أخبرنا "أنطوني" عن اختبار تجديده الذي حدث مؤخراً. بدأ "ستيفان" في سن صغيرة يبحث عن سبب وجوده. ولاحقاً وفي أثناء عمله، بدأ أحد زملائه يكلمه

برسالة الإنجيل خلال أحاديث طويلة تدور حولهما. وعن طريق بحثه الشخصي في الكتاب المقدس تفتحت عيناه. ووجد الإجابة عن معنى الحياة. هذا الخبر الجديد كان مفاجأة بالنسبة لي في البداية، فقد كان يعلن أنه لا يؤمن بالله. ولم أكن مثلاً أعلى لإبنيَّ في هذا المجال، فلم أنقل لهم قيَّم مسيحية واضحة. كنت فقط أُصلي معهم قبل النوم، لكنه كان أمراً رسمياً ليس إلا. ومع مرور الوقت بدأت التعاليم المسيحية التي كانوا يتبَّعونها في الصغر تصبح مُملِّة، وبدأ كلاهما يتركانها ومن جهتي لم أكن مُصِّرة على إعادتها عليهما مرة أخرى، وكذلك احترام التقاليد. أما جدهما وجدتهما فكانا يقصان عليهما القصص الكتابية، وأحياناً يصطحبانهما للكنيسة يوم الأحد صباحاً. هذا التغيير العظيم في حياة ابني الأصغر جعلني ابدأ في الاستماع إليه بانتباه، لكنه لم يقودني بشكل مباشر إلى هذا الطريق.

كانت الأيام تمر بسرعة وكنت دائمة الانشغال. كنت دائمة القلق بغض النظر عما كنت أقوم به. وكانت مشكلة ابني تستحوذ على كل انتباهي. ولم أستطع التخلص من الأفكار المُتسلطة التي كانت تملأ ذهني طوال الوقت.

بعد فترة من الزمن، انتكس "ستيفان"! انتكاسة جعلته ينحدر بشكل أكبر من ذي قبل. فقد كان ذهنه وجسده المعذبان يطالبانه بالمزيد من المخدرات وبجرعات أعلى. أخذت شبكة الإدمان تزداد في التفافها حوله حتى أغرقته. كان لابد أن يجد الهيروين، وعليه أن يتكبد عناء الوصول إليه. فلم يكن قادراً على السيطرة على إدمانه. في البداية، يلجأ المُدمن إلى تناول المخدرات للوصول بها إلى كوكب آخر، للهروب من واقع الحياة إلى عالم غير واقعي، والذي يسميه الحرية. إلى جانب أن الإدمان، لن يجعله يتألم أبداً بسبب أعراض الانسحاب. الإدمان هو عبودية مُخففة. يقول الخبراء في هذا المجال، أنه لا يوجد مُدمن سعيد. فالمخدرات لا ينتج عنها سوى العذاب الأخلاقي والجسدي.

كنت مكتئبة ولا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، ولا إلى أين أذهب. وتملكني يأس شديد وكنت مُعذبة بمشاعر الذنب وبرؤية آلام ابني، آلام بسبب غياب العون. ذهبت إلى الله وصرخت: "يا رب تعال لمعونتي". توسلت إليه وقلت: "من فضلك اخرج ابني من الجحيم، أتوسل إليك أن تخلصه".

تبع ذلك فترة قصيرة من الهدوء، عندها بدأت أؤمن بقوة أن الله سمع صلاتي. لكني كنت مُخطئة، فلم تكن المخدرات قد قالت كلمتها الأخيرة بعد. كان رد فعلي الأول عنيفاً، أخذت أعاتب الله. لم أفهم لماذا ترك "ستيفان" في هذا الضياع، لماذا يتركه يموت ببطء. كنت مصدومة. فـ "ستيفان" يسبح ضد موجات بحر هائج. وقد أُخذ في دوامة البحث عن الجرعة التي ستعطيه بعض الراحة. وحتى يتجنب آلام الموجة التالية، بدأ في البحث عن الجرعة التالية. في الوقت الذي تهدئ فيه المخدرات الآلام الجسدية، تزيد من الآلام الأخلاقية. كان كيانه كله يصرخ طالباً المساعدة دون إمكانية التجاوب مع هذه المساعدة. فقد كل دافع للتخلص من المخدرات وفقد القوة والرغبة في ذلك. ما فائدة محاولة جديدة للتخلص من الإدمان لمن ولماذا؟ ما هو هدف الحياة؟ البحث عن سعادة خيالية... حلم بعيد...

فقد الأمل، وأصبح لا يتوقع شيئاً من الحياة لأنها لم تعطه سوى الحزن والألم. ما الذي ستقدمه له أكثر مما قدمته؟ بأي شيء يمكن التعلق به في هذا البحر الهائج، والذي لا يُعطي شيئاً له معنى؟ لماذا يتمسك بالحياة عندما لا تمده بالأمل؟

حتى الضوء الذي يظهر في نهاية النفق، لم يستطع رؤيته وسط عمق يأسه. كانت المخدرات كالغرغرينة المُدمرة التي تلتهم الجسد تدريجياً. وتفسد الجسد والنفس معاً، فهي تدفعه نحو الانحدار تدريجياً حتى يفقد كل قيمة في ذاته.

جاء دوري لاختبار الحياة الروحية، عندما بدأت أدرك أننا لا نستطيع مناورة الله. وأمام سيادته وسلطانه، شعرت بضعفي. وفي عمق أحزاني، ارتميت على ركبتي وصرخت لله في يأس. شعرت بتعطفه عليَّ، وشعرت به يمد إليَّ يده. بدأت أبكي، ووضعت أمام صليبه كل أحمالي. كنت بمفردي في حجرتي، ظللت راكعة فترة طويلة طالبة رحمته. أعطيته نفسي، وتركت دموعي تنهمر. في هذه الليلة فتحت قلبي وقلت: "آتي إليك يا رب، ادخل حياتي، أُعطيها لك يا يسوع المسيح، أقبلك مُخلِّصاً لحياتي". نمت في تلك الليلة في سلام وقد امتلأ قلبي بالعزاء، وطرد السلام مرارتي. وبدأت من تلك اللحظة أتوقف عن المحاربة بمفردي. نعم، فالآن أصبح الرب إلى جانبي وأستطيع الاعتماد على محضره.

الفصل الثامن

شَجَّاعِة أم عظيِّمة

بعد عدة أيام لاحقة، قررت أن أذهب لأعيش أنا و"ستيفان" مع أمي في "لوزان"، لأن "ستيفان" لم يكن لديه مكان يسكن فيه، ولم يعد لديه ملجأ يضمن له الاحتياجات الأساسية. فقد عادت صديقته "ميكي" للحياة مع أبويها.

كان أبي قد مات، وبالتالي لم أعد قلقة على إزعاجه بالمشكلة التي نجتازها. لكن كان يجب أن نشارك أمي بأخبارنا، وقد فاجأتني بتفهمها الكبير للموقف. قبل أن تعرف بما يجري مع "ستيفان"، كانت تتهم كل المُدمنين بالمشردين الجبناء غير القادرين على التأقلم مع الحياة، لكنها غيَّرت رأيها في عالم المخدرات. فالأمر الآن يتعلق بحفيدها الصغير.

هذه المرة لم يكن هناك شك في أن "ستيفان" يحتاج إلى التدخل العلاجي. ولأنه كان فاقد الوعي تماماً، لم يكن قادراً على اتخاذ أي قرار. منذ أن قبلت المسيح في حياتي وحصلت على الخـــلاص، أصبحت أرى الأمور من منظور

مختلف، بدأت أبحث عن مركز مسيحي لإعادة تأهيل المدمنين. وكنت أطلب من الله العون والإرشاد خلال هذا الوقت المُظلم والغير مُحدد المعالم. قادتني خطواتي للقس "توربرت فالي". لا أذكر كيف حصلت على اسمه، ولم يكن ذلك مُهماً. لكني أذكر كيف استجاب الله لدعائي بشكل رائع. كان "توربرت فالي" مُتخصصاً في أسباب الإدمان. وقد شجعني وطمأنني اهتمامه ووجوده متاحاً بشكل كبير. نصحني بأحد المراكز المسيحية العلاجية وبعائلات مسيحية ترحب بالمُدمنين.

تكلمت مع "ستيفان" عن اختبار إيماني، وعرضت عليه العلاقة الجديدة التي حصلت عليها. لكنه لم يكن راغباً فيها ولم يُبد اهتماماً لدعوتي له للصلاة وطلب الرب! منذ أن بدأنا ندفعه لقبول العلاج، بدأ يختار بنفسه المركز. ولأن الدافع للعلاج لابد أن ينشأ من المُدمن نفسه، لم أستطع أن أجبره على اختيار مركز معين. فهذا لن يفلح، وقد يسبب نتائج عكسية.

كنا سبب إزعاج لحياة أمي المُنظمة. وحاولت جاهدة ألا أقحمها في تفاصيل ما نقوم به. رغم أنها أظهرت شجاعة

وصبراً عظيمين، إلا أنني لم أرد أن أزعجها كثيراً بقلقي واضطرابي الكبير. فأخذت أحث "ستيفان" أن يبدأ في خطوات جادة. وأخذنا نبحث في قائمة العناوين التي حصلت عليها في محاولاتي الأولى. لم يرد "ستيفان" أن يبتعد كثيراً عن أصدقائه، وكان ما يهمني هو الوصول لمكان متاح في أسرع وقت لأن قوائم الانتظار كانت طويلة. وفي النهاية، لم يكن لدينا خيارات كثيرة. وجدنا مركزاً مستعداً لاستقباله خلال شهرين، لكن بعد المقابلة الأولى، كان عليه أولاً أن يقدم رسالة يكتبها بنفسه توضح دوافعه وتظهر رغبته في الخروج من دائرة المخدرات.

كانت هذه مهمة صعبة على "ستيفان" وتحتاج لمجهود كبير لإتمامها. وللبدء في التحرك، أخذت أدفعه لكتابة هذه الرسالة بأسرع ما يمكن. لكن للأسف أصبحت هذه المهمة مستحيلة. وكان يجب عليَّ أن أساعده. كنت أعرف جيداً أن هذا ليس الخيار الأفضل بما أن الدافع لابد أن يأتي منه هو. وأنه يجب أن يثبت أن لديه الإرادة للتخلص من المخدرات. لكن ماذا يمكنني عمله؟ هل أنتظره يستمر في الضياع والوصول لمراحل متدنية حتى يصبح لديه الدافع؟ لكني كنت

تحت ضغط شديد في هذا الموقف المتأرجح. فلم يكن لـ "ستيفان" بيت ولا أستطيع أن أتركه يعيش بمفرده مع أمي التي لا تستطيع مواجهة مثل هذه المشاكل. هل أتركه بمفرده.. في الشارع..؟ مستحيل بالنسبة لي كأم أن أفكر في هذا الافتراض. هل أعود لفرنسا دون أن أعرف إلى أين سيذهب؟ لن أسمح بتكرار ما قد اختبرناه من فشل سابق. كان لابد من اختيار مركز للتأهيل في سويسرا حتى يمكن للتأمين أن يدفع تكاليف العلاج. كان يمكن لأخيه أن يستقبله معه في شقته الصغيرة، إلا أنه كان يعمل طوال اليوم وسيترك "ستيفان" وحده معظم الوقت.

كانت الأسابيع الثلاثة، التي تقع بين تقديم الرسالة والحصول على الرد من المركز مليئة بالمتطلبات. فقد كنت أرافق ابني في معظم الوقت عندما كان يُريد الذهاب للمدينة، لكن أحياناً كان يُصرّ على الذهاب بمفرده، وذلك لأسباب خاصة ومُهمة كما يدَّعي... ولم أستطع أن اتعقب ابني مثل الأطفال أو أُقيده في المنزل. لكني في أحد المرات خرجت لأتعقبه. عند عودتنا للمنزل كان يقول لي:

- اذهبي الآن، سأتبعك لاحقاً.

- لا، سنذهب معاً، إذا كنت تريد عمل شيء، سأذهب معك.
- هذا مزعج! قلت لك لن أتأخر.

أعطيته تذكرة الأتوبيس ليعود بها دون أن أنطق بكلمة أخرى، وتحرك في طريقه. وقفت للحظات دون أن أعرف ما ينبغي عليَّ فعله، ثم قررت أن أتعقبه. على مسافة بيننا، لم أفقد رؤيتي له بسبب شعره الطويل المتدلي فوق معطفه ذي الألون المبهجة والطابع التايلندي. استمر في السير لمدة عشرين دقيقة، ولم يستدر أبداً. ثم دخل أحد المباني، هل يا ترى شعر بأنني أتعقبه؟ انتظرت بعض الثواني ثم دخلت وراءه المبنى، انتظرت في الدور الأرضي وأخذت استمع للأصوات في المبنى. لكني شعرت بعدم الارتياح لقيامي بدور شرطي التحري. فخرجت وعبرت الطريق وانتظرت في الجهة الأخرى مقابل المبنى مستندة إلى الحائط. رأيته يخرج بعد فترة قصيرة. وعندما رآني جاء إليَّ. وتعجبت لأنه لم يندهش كثيراً.

سألته:

- ماذا تفعل هنا؟
- لا شيء ... وأنت، ماذا تفعلين هنا؟ هل تتعقبينني؟

- نعم، اتعقبك. أنا لست غبية، ومن الصعب الوثوق بك. حتى متى ستتكر ما تفعله؟ لماذا لا تريد إخباري بالحقيقة حتى نتحدث معاً؟

- اتركيني وشأني.

- حسناً! افعل ما تريد، سأذهب.

شعرت أنه يجب عليَّ الاستسلام، لأنه بطريقة أو بأخرى لم يستسلم. لم أرد أن أتسبب بفضيحة في الشارع، ولم أرد أن أقلق أمي التي تنتظرنا. وكان من الأفضل أن أعود للمنزل. وعند أمي، تمنيت لو أن الأمر يسير بهدوء لأجل خاطرها.

كان دائماً يستطيع الوصول للمخدرات، لكنه كان مُفلساً. وعملاً بنصيحتي، أعطاني بطاقة ائتمانه بسهولة لأنها على أية حال لن تفيده. لم أكن أتخيل أبداً أنه يمكنه أن يسرقني، ومع ذلك وبدافع الحرص، كنت أخبيء محفظتي. وحتى لا أضع الشك في قلب أمي، كنت حريصة جداً على كل ما تملكه في بيتها. في وقت لاحق، قال لي "ستيفان" أنه لم يلجأ أبداً للسرقة، حتى في المواقف التي كان من السهل عليه القيام بذلك، مثل خطف حقيبة أحد العاجزين أو غير ذلك.

لحسن الحظ وسط هذا الوقت التعس، ظل تعليمي له متأصلاً في داخله. ولكي يحصل على المخدرات، ككثيرين مثله، كان يبيع كل ما يمتلك مما يمكن بيعه: كاسيت السيارة، اسطوانات موسيقى، أدوات رياضية وغيرها. كان هناك بعض الأشياء التي كان لا يزال يتمسك بها، ولكنه اضطر إلى رهنها على سبيل المثال، سلسلة من الفضة والتي لن يستطيع شراء مثلها. في الحقيقة، لم يتبق لديه الكثير سوى ما يلبسه، وبعض الأشياء الصغيرة التي تركها في حوزة صديقته. وبسبب المخدرات، بدأ يستدين تدريجياً وتراكمت عليه الديون. فالمخدرات حمل لا يمكن تجنبه لكل من يصادقها. ومثل الإعصار الذي يكتسح كل شيء في طريقه، كان للمخدرات نفس التأثير فقد سحبت في طريقها كل ما صادفته. وحتى يستطيع الحصول على ما يريد، ذهب ابني في طريق تجارة المخدرات. ولأن ضميره لن يسمح له أن يُغري أحد الشباب الذين لم يكونوا قد جربوا المخدرات من قبل، فإنه أخذ يبيع المخدرات فقط لأصدقائه الذين كانوا معه في نفس الظروف. فندمه على المرة الأولى التي قرر فيها تجربة المخدارت منعه من إشراك آخرين في نفس الأمر.

كان "ستيفان" يحصل على بعض النقود القليلة، تضاف لحسابه البنكي من إحدى شركات التأمين. وبما أنني أملك توكيلاً على حسابه البنكي، ذهبت مباشرة للبنك لأسحب المبلغ. وعندما وصلت لم أجد بطاقة ائتمانه في محفظتي: "ماذا! هل فقدت البطاقة؟" كان عليَّ أن أستسلم لفكرة أنه قد أخذ البطاقة. على أية حال فقد وصلت متأخرة، وسبقني "ستيفان" للبنك. ولم يتبق في الحساب سوى أقل كمية تجعل الحساب يستمر مفتوحاً. غضبت من نفسي، فقد كان مُمكناً أن أسرع أكثر وأكون أكثر حذراً. فحتى دون بطاقة الائتمان، كان يستطيع سحب النقود باستخدام بطاقة الهوية. وبلا شك، جعلته هذه الكمية من النقود يشتري ما يكفيه من المخدرات التي تجعله سعيداً لعدة أيام!

كل مرة كان يعود فيها للبيت، كنت أفتش خلفه. كنت أقلب في جيوب معطفه، وجيوب الجينز، وأنظر داخل حذائه. لكن بالطبع لم أجد أي شيء لأنه بالتأكيد لن يضع *البودرة* في مكان واضح. غالباً، كان يأخذ الجرعة في مكان ما خارج البيت، لكنني كنت أشك أنه قد يكون يخفيها داخل البيت، لكنني لم أرد أن أترك علامات تدل على بحثي داخل

بيت أمي احتراماً لها. كنت دائماً عمياء. وكنت أبحث في كل مكان، ما عدا المكان الصحيح. كانت أمي تحب التحف والزينة وكان من الصعب البحث في كل ركن بالمنزل. كنت دائمة الانتباه والحذر. أحد المواقف الأخرى التي ذكرها لي "ستيفان" لاحقاً كانت: أن المرة الوحيدة التي اخفى فيها المخدرات كانت في الحمام داخل زهرية ورد فوق السيفون. كيف وصلت *البودرة* لهذا المكان بينما كنت أبحث في كل مكان؟ كانت قدرته على التخيل واختراع أماكن لإخفاء المخدرات مُذهلة. فكل ما يشغل بال المدن هو أمر واحد: المخدرات. ولا يوجد أي شيء آخر يمثل أهمية بالنسبة له. كل اهتمامه ينصب حول توفير ما يحتاجه من المخدرات ولا يمكنه التفكير في أي شيء آخر إلى جانب ذلك، ولا يريد أي شيء آخر. لم تكن حياته أهم من المخدرات بل كانت المخدرات حياته. في البداية تكون المخدرات مصدر المتعة، لكن مع مرور الوقت تصبح الدواء المُلح والذي يمنعه من آلام الانسحاب.

كان يذهلني أن أرى ابني الذي أصبح كسولاً بسبب تأثير المخدرات. يصبح في قمة الذكاء والمهارة بمجرد أن يحتاج

إليها، ويمتليء بالطاقة ويبدأ يبحث عنها بجنون. وحتى يجد *المنتج الغالي*، كان يتصرف بمنتهى المهارة والقدرات المرتفعة. وكان ذهنه يمتليء بالأفكار المبتكرة لإخفائها، ويبدأ في اختراع الكثير من الحيل. كان يستخدم كل الحيل الممكنة والتي لا يمكنني تخيلها أو استيعابها. يا له من ذكاء يجعله يخفي أفعاله حتى لا نرى حالته.

المخدرات تنبه حالة الوعي. والمأساة الحقيقية تحدث بسبب الكذب. وهي مأساة حقيقية تحدث للأسرة. فقد صممنا على مساعدته لكن فقدنا الثقة، وأصبحنا باستمرار أمام حائط كبير من الأمور التي تحتاج للمواجهة. وفي لعبة الخداع التي يلعبها نجد خليط الأكاذيب والحقائق، ولكننا لا نعرف أيهما نصدق. ويبدأ في إساءة استخدام ثقتنا، وعندما نكتشف أننا مخطئون، نبدأ في الشعور بالخيانة والمناورة. ونواجه شلالاً من الارتياب والشكوك والابتزاز أيضاً. فيمكن لابني أن يقسم أنه لم يتناول المخدرات، بينما كل أفعاله تُظهر بوضوح أنه تحت تأثير المخدر. فأجد ذهني يُخبرني بأنه يكذب، أما قلبي فإنه يتوق إلى تصديقه. كنت أتمنى أن جانب الصدق يعطيه العذر. لم أكن مُعتادة على مثل هذه

الألاعيب وأنصاف الحقائق والتي كانت ترهقني كثيراً. كان يجب أن اتعلم الحذر في كل شيء، لكنني لم أستطع. فالشك لم يدخل مجال تفكيري. وكنت أُفضِل الانحياز للثقة، وهي طبيعة شخصيتي.

كان "ستيفان" يردد نفس الكلمات: "لا يمكنكم فهمي!"، وكنا نشعر في كلماته بمشاعر تقول: "أنتم لا تحبونني!"، كان ما يهمني هو أن يفهم ابني، أننا نحبه بالرغم من مشكلته، وأن محبتنا له هي محبة بلا لوم، ومحبة كاملة وغير مشروطة. كانت محبتنا له هي ألا ندخل في لعبته الابتزازية، وأن نظل ثابتين في محبتنا، ويقظين ومستمرين في طريقنا لمساعدته دون شعور بالخزي.

في الأوقات التي كان "ستيفان" يجلس فيها بمفرده ولا يريد الخروج، كنت أعرف أنها تلك الأوقات التي يسبح فيها في المشاعر التي تنتجها الهيروين. كان يستلقي على الأريكة، ويبتلع كل القنوات التليفزيونية. كنت أشير لهذه الأمور التي لم أعد أنخدع بها، ولكنه كان يؤكد لي عكس ما ألاحظه. كانت أمي تلاحظ حفيدها في مواقف غير معتادة: تشويش وعينين نصف مغلقتين، ولم يكن يتكلم أو يهمهم

بصوت غير واضح. وعلى الرغم من حالة التغييب هذه، إلا أنه لم يفقد إدراكه للأمور التي تحدث حوله وكان يسمع كل ما يُقال له. كانت أمي تجهل تأثير المخدرات، وبالتالي لم تكن تُدرك الأوقات التي يكون فيها تحت تأثير المخدرات. كنت أبذل قصاري جهدي لأتجنب أية توترات. كنت سعيدة بقبولي المسيح وبتغير اتجاهات قلبي وامتلائه بالرجاء والأمل وهذا سبب تعزية لها أيضاً.

وفي أثناء لحظات السكينة هذه، كنت أقرأ في كتاب "الصليب والخنجر" للكاتب "ديفيد ويلكرسون". كان هذا أحد الكتب الشهيرة في مكتبة أبويَّ، لكنها المرة الأولى التي ألتفت لعنوانه. في الموقف الراهن، كان هذا الكتاب مناسباً جداً. فقد كانت هذه القصة الحقيقية مُحركة ومُثيرة وجعلتني متشوقة لمتابعتها. فاختبار هذا القس الذي كان يعظ بالإنجيل وسط الشباب في المجتمعات العنيفة ووسط المُدمنين في شوارع نيويورك كانت تلهمني الشجاعة والجرأة.

حاولت التحدث مع يسوع المسيح عن ابني. لكنه لم يسمع لصلاتي. وكان كل ما استطيع القيام به هو الانحناء في الصلاة وتسليم "ستيفان" بين يدي الشخص القادر على أنقاذه

وشفائه.

في وقت متأخر من أحد الليالي، ولحسن الحظ كانت أمي نائمة، رأيت "ستيفان" يضع ملابسه وكان على وشك أن يغادر المنزل.

سألته بقلق:

- ماذا تفعل؟

توسل إليَّ قائلاً:

- لابد أن أخرج، من فضلك اقرضيني ١٠٠ فرانك، وسأعيدها إليك.

جلست بجواره على حافة السرير.

- لا يا ستيفان. لا أملك ١٠٠ فرانك، وإذا كنت أملكها، فلن أعطيك هذا المبلغ.

- من فضلك! أنا تعبان... لن آخذ منك نقوداً مرة أخرى...

- أعرف .

شعرت بضعف شديد أمام هذا المُخدر المُدمر. كيف يمكنني أقناعه ألا يخرج؟ فأنا أعرف أنه حتى لو لم يكن معه أي نقود، فسينجح في الحصول على البودرة. فاقتربت إليه. ووضعت رأسي بين يديَّ وأخذت أصلي بهدوء: "يا

رب، أتوسل إليك، امنع ابني من الخروج، واحفظه!".

ومباشرة بعد هذه الصلاة القصيرة والحارة، فتحت عينيَّ ورأيت "ستيفان" لايزال جالساً على حافة السرير يخلع ملابسه، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ودون تذمر رقد على سريره.

بالتأكيد كانت هذه معجزة، فالمعجزة فقط هي ما يُمكنها تغيير هذا الموقف الجذري في لحظات قليلة. أخذت دموعي تسيل، وشعر قلبي بالفرح والامتنان بالله. لم يسأل "ستيفان" أية أسئلة أخرى، ولم أقل له أي شيء في هذه اللحظة. وعم السلام في هذا المساء.

الفصل التاسع

احتجاز وعلاج

أخيراً وصلتنا رسالة من المركز، تخبرنا أن ميعاد الدخول منتصف أبريل. هذا يعني شهراً آخر من الانتظار، وكان يجب عليه الثبات حتى ذلك الوقت. كانت الرسالة تحوي أيضاً بعض التوصيات: أن يقدم نفسه بعد أن يكون قد فطم عن المخدرات، حلاقة الشعر بطريقة تقليدية، أن تخلو متعلقاته من كل الأمور التي لها علاقة بخبراته السابقة. كان التخلص من خاتم، كان هدية من صديقته، أمراً جارحاً، لكن الأكثر من ذلك كان أن يحلق شعره.

كان هناك تخوف كبير من ذهابه إلى الحلاق، فقررت أن أرافقه، لأنه كان تحت تأثير المخدر، وكانت هذه هي الحالة الوحيدة التي يستطيع فيها قبول مثل هذا الأمر، وإلا سيرفض تماماً أن يحلق شعره. تحتاج أن تعرف أنه تحت تأثير الهيروين، يكون المُدمن غير مكترث بالأمور من حوله لأنه يكون في عالم آخر. والواقع يكون أقل أهمية بالنسبة له. أخذ الحلاق يُبدي إعجابه بشكل أخر بالشعر الطويل

للرجال، وكان يظن أنها خسارة كبيرة أن يحلق "ستيفان" شعره. ودون أن يعلم، قلب على "ستيفان" المواجع. حاولت تغيير الحديث، فبرغم هدوء "ستيفان" وليونته، إلا أنه كان واعياً ولم يكن قلبه متبلداً. ورؤية شعره الكثيف يسقط على الأرض ويُحصد بحركة واحدة من المقص، أمر جارح جداً. ولأني كنت أشجعه على تطويل شعره، فقد شعرت كذلك بالحزن عندما رأيت رأساً أخرى. وأصعب من ذلك هي رؤية وجهه المتجهم الذي يدعو للشفقة.

بعد يومين، وعندما استيقظ "ستيفان" من نومه وجد ذراعه الأيمن ويديه قد شلّتا وفقدتا الأحساس وكأنهما قد ماتتا. لم يفهم ما يحدث له. لم يكن هناك ما يجعلنا نفترض سبب حدوث هذا الشلل. شعرت بالذعر، وأخذته للمستشفى فوراً. بعد أن انتظرنا عدة ساعات زادت من حدة صبري، ثم ساعات أخرى في انتظار محاولة تشخيص ما أصابه، خرج "ستيفان" من المستشفى، ويداه موضوعتان في جبيرة، وكان عليه أن يبقيهما لبضعة أسابيع في هذا الوضع. فقد تمزق أحد أعصاب يديه، فالجسد الذي تحت تأثير المخدرات قد يحدث له الكثير من المفاجآت غير السارة.

ثم حدثت مشكلة أخرى. كانت الأمور تسير على ما يرام! لكن في أحد الأيام كان "ستيفان" يقود السيارة وهو تحت تأثير المخدرات، وأوقفته إحدى أكمنة شرطة المرور. ولاحظوا مباشرة حركاته البطيئة والغريبة. فسحبوا رخصة قيادته لفترة من الزمن بغرامة مادية إلى جانب احتجازه لمدة أسبوع. كان لابد أن يقضي عقوبة في السجن لمدة أسبوع، وهو ما يسمى بالأسبوع الوقائي. كانت مشاعر مخزية للغاية أن أصطحب ابني للسجن. عرضت علينا اختي مرافقتنا لهذا المكان البعيد. مرة أخرى كان على "ستيفان" أن يحيا مستقلاً عني. بالنسبة لمن لا يعرفه قد يبدو وكأن الأمر لا يؤثر فيه كثيراً، لكن بالنسبة لي أنا أمه، كنت أدرك أنه يتألم كثيراً في داخله. فقد كان "ستيفان" دائماً منطوياً وزادت المخدرات من هذه الصفة في شخصيته. تركته هناك، خلف البوابة الكبيرة الحديدية والمراقبة بكاميرات الفيديو. وكان الحزن يعتصر قلبي، لكني تركته بين يدي الله. وأغلق الباب خلفه. كنت أشعر بالامتنان العميق لأختي، فقد كانت مرافقتها لي في هذه اللحظات وهذا المكان الكئيب سبب تعزية كبيرة لقلبي. أخذتني "مونيكا" مباشرة لمحطة لـــوزان لاستقل القطار إلى

زوجي.

لم يكن السجن لمدة أسبوع فترة كبيرة، لكن بالنسبة للسجين هي فترة كبيرة. وحتى يوفرا عليَّ عناء السفر، عرضت أختي و"أنطوني" الذهاب وإحضار "ستيفان". كانت ساعة الخروج من السجن مثل ساعة الدخول، وهي تمام الواحدة. وبعد الواحدة بدقيقة خرج "ستيفان" للقائهما حاملاً حزمة في يديه. ثم أخذاه مباشرة للمستشفى ليعرضاه على دكتور الأعصاب. وبعد ذلك صحباه للقطار. كان ذلك قبل أسبوعين من دخوله مركز إعادة التأهيل. وفضلت أن يأتي "ستيفان" لفرنسا للبقاء معي هناك. لأن وجوده في لوزان قد يكون فيه مُخاطرة تناول جرعة من المخدرات، حيث إنه كان يعرف المدينة جيداً، ويعرف كيف يحصل فيها على المخدرات.

وصف لنا "ستيفان" كيف كان لهذا الأسبوع في الحجز تأثير كبير عليه. فقد رأى الكثير من الحالات التي يرثى لها من رجال وشباب وشيوخ، في أوضاع متدنية للغاية. وحكى لنا قصة شاب كان مُلقاً على الأرض يتلوى ويئن وينعي سوء حظه وكان شكله مصدماً. كان "ستيفان" يعرف معنى

الاعتماد على المخدرات، لكنه لم يكن قد رأى تأثيرها المُدمر على الآخرين، وقد ترك هذا الأمر اشمئزازاً في داخله وأثار سؤالاً في ذهنه. أليس من الأفضل عدم الوصول لهذه المرحلة؟.

كانت ذراع "ستيفان" لازالت في الجبيرة، لكن كان لابد أن يشغل وقته خلال هذا الأيام القليلة التي سيقضيها في البيت. كانت مساعدته لزوجي في العناية بالحديقة الصغيرة له تأثير إيجابي. وكان "موريس" يقضي أوقاتاً طويلة في الحديث مع "ستيفان" وإعطائه النصائح والمشورة. أما بالنسبة لي، فقد كان قلب الأم داخلي دائم الصلاة: "افتح عينيه ليراك يا يسوع، وليسير في نورك".

هذه المرة ذهبنا لسويسرا بالسيارة. كان يوم الجمعة. وكان "ستيفان" سعيداً لأنه سيقضي عطلة نهاية الأسبوع هذه مع صديقته. وقد خططت لاصطحابه للجبال، لأنه بعد أن يذهب للمركز، لن يتسنى لها رؤيته لفترة طويلة. أخذت "ميكي" تشجعه بقوة، وكانت ستنتظره. كان من الواضح أن "ميكي" هي السبب الأقوى وراء اشتعال الدافع لذهابه للعلاج.

أخـــذ "ستيفان" يجمع أغراضه ويجهـــز حقيبته بكثير من

القلق ولكن بحرص: كان كل ما في الحقيبة هو بعض الملابس والأوراق الخاصة به. لم يكن هذا الأمر مُبهجاً، فلم يكن في طريقه لتمضية إحدى العطلات! حاولت التكهن بأفكاره، هل يا ترى كان يملأ قلبه أمل الشفاء؟ هل كان يظن أننا نريد التخلص منه؟ وعندما رأيت وجهه الحزين، كان من الصعب عليَّ أن أجد كلمات تشرح له أن ما نقوم به هو لمصلحته ولخيره.

وفي صباح يوم الثلاثاء بعد عيد القيامة، اصطحبت "ستيفان" لمكتب الاستقبال في مركز إعادة التأهيل والذي يستقبلون فيه النزلاء. وكانت "ميكي" في صحبتنا. أوقفت السيارة بالقرب من المبنى حتى نذهب معاً نحو الخطوة الأخيرة. وبينما كنت جالسة أمام عجلات القيادة، وضعت ابني بين يديَّ الله. ومرة أخيرة، رأيته خارج المدخل يتجه ناحية الباب ويفتحه ثم يختفي. وعلى الرغم من أن قلبي كان مثقلاً، إلا أنني شعرت بالراحة. فلمدة عام، كنت دائمة النشاط، وقد كابدت الكثير من الصراعات وكادت قواي تنفد، وكنت أشعر بتعب شديد. والآن وبشكل ما، وضعت كل أحمالي فوق كاهل هؤلاء الذين سيكون عليهم تدبر الأمر،

وقد كان هذا هو مجال تخصصهم وعملهم. وكان شيئاً جيداً أن يكون "ستيفان" الآن على أرض محايدة، خارج نطاق الأسرة وبعيداً عن أصدقائه حتى لا يستمر عُرضَةً للضغط. في أول مراحل إعادة التأهيل، كان التواصل مع العائلة والأصدقاء ممنوعاً، ولم تكن الزيارات أو استقبال الرسائل أو التليفونات مُمكنة. كان على أعتاب العلاج الذي سيقوده إلى الفطام، والمقصود به الفطام الجسدي عن المخدرات، ثم بعد ذلك سيعود للمركز، ليبدأ عملية العلاج غير الدوائي، والذي يخلو أيضاً من كافة البدائل، حتى التدخين. هؤلاء الذين تخلصوا من المخدرات، هم فقط من يمكنهم أدراك حجم العبء الذي يجب عليهم تحمله للوصول إلى العلاج.

كنت بالتأكيد أشعر بالارتياح، لكن في أعماقي، كنت أشعر أننا لم نصل بعد لنهاية السباق. عدت إلى بيتي في نفس اليوم، وأحاطني زوجي بكل اللطف والعناية. ولم يعد هناك احتياج للقلق والخوف على "ستيفان" وأين سترسو سفينة حياته، لكن كان بين يديَّ بعض الأمور المتزعزعة. فلقد تأثرت حياتي الزوجية كثيراً بما حدث، وكان جميلاً أن نجد بعضنا البعض مرة أخرى. وأصبح لديَّ الآن متسع من

الوقت للقيام ببعض المسئوليات في أنشطة الكنيسة، وفي التعمق في قراءة الكتاب المقدس.

كنت أقرأ الكتاب المقدس كثيراً في شبابي، لكن الآن قراءتي له لم تعد قراءة ذهنية بل قلبية. بدأت عينايَّ المظلمتان تزدادان في الفهم أكثر وأكثر. وبدأ إيماني يزداد قوة. وكنت أسأل نفسي: "كيف أمكنني العيش طوال هذه السنوات في بُعد عن الله، ثلاثون عاماً من البيات الشتوي؟" وبدأت أشعر بالندم الشديد والأسف على هذه السنوات، لكن معجزة النعمة محت كل مرارة في قلبي. "لماذا تطلَّب مني الأمر، كل ذلك الوقت للتجاوب مع دعوة الله؟" فصوت الله يملأه الحب، والقوة ليست بعيدة المنال. أذكر جيداً بعضاً من كلمات الراعي، والتي ذكرها في إحدى عظاته: "في فرحنا، يهمس الله في آذاننا، لكن في آلامنا يصرخ ليتحدى حياتنا. يرتفع صوته في أذهاننا. ويكون الألم عادة هو صوت الله المرتفع". كانت حياتي طوال هذه السنوات الماضية تطابق هذه المقولة. وكنت أحتاج لهذه المحنة المؤلمة لأعود إلى الله. كثيراً ما يستخدم الله مثل هذه الأحداث ليجذبنا إليه. وكثيراً ما يولد الإنسان ثانية بسبب المعاناة والألم.

بعد مرور خمسة عشر يوماً، عدت إلى لوزان لحضور مناسبة سعيدة. وهي معمودية "أنطوني" في الكنيسة المحلية. كانت لحظات من السعادة الغامرة بعد شهور مُظلمة. كان تغيير وإيمان "أنطوني" بركة حقيقية لنا. فقد فتح الله لي كوة وسط الغيوم الكثيفة أرى من خلالها السماء الزرقاء. قلت لنفسي: "لو كان ابني الأكبر هنا، ربما يلمسه اختبار إيمان أخيه". وكنت متأسفة على غيابه. لكن لو كان حراً هل كان سيأتي؟ عبَّرت العائلة عن فرحها أيضاً، وخاصة أمي وقالت:

- للأسف ليس أبوكِ معنا الآن. فلو كان هنا لفرح فرحاً كبيراً بحفيده الصغير.

الفصل العاشر

لا وقت لالتقاط الأنفاس

مرت عدة أسابيع دون أن نسمع أية أخبار مُهمة. احترمت هذا الصمت المفروض علينا، واحتفظت بثباتي وثقتي، برغم الشكوك التي كانت تساورني من حين لآخر. كان التخلص من المخدرات يحتاج لبعض الوقت، ويحتاج إلى الكثير من الصبر. والآن، عندما يدق جرس الهاتف لا أصاب بالخوف مثلما كان يحدث، لأنني كنت أعرف أن "ستيفان" في أمان، وتحت حماية من الأشرار. طبيعة وجود المركز في مكان قروي منعزل، يجعل من الصعب على نزلائه الهروب. لكن في أحد الأيام، ومثلما تهب الرياح في أحد ليالي الصيف، اتصل "ستيفان" :

– ستيفان!... أين أنت؟

– أنا في التاكسي، يمكنك أن تتصلي بي.

كتبت بذعر الرقم الذي أملاه عليَّ على ورقة صغيرة.

– ما الذي حدث؟

– هربت!

صرخت قائلة:

- مستحيل!

- الأمر صعب جداً. لقد تعبت... ولست الوحيد الذي هرب.

- لكن هذا ليس سبباً مقنعاً. أعرف أن الأمر صعب...

أخذت أبحث عن كلمات. ثم أجبته:

- اسمع، لقد بدأت، والبداية هي أصعب ما في الأمر. ومن العار أن تتوقف هنا.

لكني أدركت بسرعة أن تشجيعي له ليس له قيمة الآن. فقد كان يفتقر للإرادة القوية لمُواصلة السير للأمام. أخذ جسدي يرتجف. وقلت له:

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- سأذهب عند "ميكي"، سأكون هناك على ما يرام!

- هل أنت متأكد؟

- يكفيني هذه الأشهر الثلاثة. أؤكد لك أنني لن أتناول المخدرات مجدداً. سأتصل بك قريباً.

أخذت عدة دقائق في التفكير فيما حدث وفي هذا التراجع والانحدار. كان يظن أن ما حصل عليه من علاج كان كافياً، وشعر بأنه قادر على البدء من جديد في حياته. لكني لم أكن

مُقتنعة بهذا الكلام، وشعرت أنه عاد من حيث بدأ.

وجد "ستيفان" "ميكي" وكانت قد انتقلت إلى شقة جديدة. ومرة أخرى معاً، قاما بمحاولة جديدة للعودة للحياة معاً. لم تكن علاقتهما الرومانسية الآن لها نفس أهمية مشكلة المخدرات؟ ادعى "ستيفان" بأن حالته أفضل كثيراً من ذي قبل، وكما استطاع التوقف عن المخدرات لعدة أسابيع فسيمكنه الاستمرار في ذلك وعدم الرجوع مرة أخرى إليها! بالطبع كان بقاؤه في مركز إعادة التأهيل، حتى لو كان لفترة قصيرة، قد أفادته كثيراً. هذه الأخبار كان لها تأثير إيجابي عليَّ وسببت لي في الكثير من الراحة والتعزية.

تبع ذلك فترة من الثقة. فقد أقنعتني "ميكي" أن "ستيفان" لم يعد يلمس المخدرات. وبدأ يعمل في وظيفة مؤقته، وبدأ يستعيد شكل الحياة الطبيعية. لكنه كان يعرف أنه لا يزال ضعيفاً وكنا نعلم ذلك نحن أيضاً. كان قد فطم جسدياً لفترة من الوقت، وافترضت أنه فطم نفسياً أيضاً. قررت أن أبتعد قليلاً. فقد كنت قد ساعدته وأرشدته كثيراً حتى الآن وهو الآن مسئول عن نفسه. وسلمت كل شيء لله. وأدركت القوة فوق الطبيعية للصلاة، والشراكة فوق الطبيعية بين الآب

وابنه. فأنا لا يمكنني حماية ابني من الشر، لكن الله في حضوره الكلي غير المحدود، يمكنه تولي هذا الأمر.

وبعد ستة أشهر من معمودية "أنطوني"، حصلت أنا كذلك على المعمودية. وشعرت بفرح كبير أن أُعلن إيماني وتغييري أمام الجميع، وهو التأكيد لقراري أن أعيش حياة مُتجددة وهي حياة المسيح. وبرغم المشاكل والشك الذي يملأ قلبي ونفسي بدأت أتذوق السلام القلبي، ذلك السلام الذي يعطه المسيح. "سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ" (يوحنا ١٤:٢٧). ألهمتني هذه الآية وشجعتني كثيراً في ذلك الوقت. واستطعت أن أعيش وأطبق هذا الحق في مواقف كثيرة أثناء الأيام الصعبة وجعلتني ألاّ أستسلم للفشل.

استمر الصراع، يا له من ثمن باهظ تدفعه، ليوم قررت فيه أن تُجرب المخدرات. لم يكن "ستيفان" جاهلاً تماماً بالمخدرات. لكننا لا نلعب بالنار دون أن نكتوي بها. وهذه الفكرة جعلتني أتذكر "شجرة معرفة الخير والشر" الموجودة في سفر التكوين، والذي تسبب أكلها، الموت للجنس البشري، كما قال الله. لكن الحية قالت: "لَنْ تَمُوتَا!" (تكوين ٢: ١٧ و٣: ٤)، وفي هذه الصورة أرى مقارنة بين هذه

القصة وبين المخدرات: المخدرات تحولت إلى ملاك نور، تماماً مثلما فعل الشيطان، لتخدع من يتناولها مُتظاهرة بأن لديها قوة تُمكنها من الانتصار على نفسها. لكن نتيجة هذه الكذبة هي الموت الذي لا يرحم.

بعد مرور فترة من الزمن، إنتكس "ستيفان" مرة أخرى... من يمكن أن يُقيمه مرة أخرى الآن؟ هل هناك مخرج؟ لم يكن هناك سوى باب واحد مفتوح، قال يسوع: "أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى". (يوحنا ١٠:٩) لكن كيف يمكنني نقل الخبر السار (الإنجيل) لابني. فالله وحده من يملك القوة لتغيير القلب. وبالتالي استمريت في إيماني وثقتي بالصلاة والصوم. وبعد هذا السقوط الجديد، كنت أقل شعوراً باليأس عن ذي قبل، لأنني عرفت على من يُمكنني أن أتكل. بالطبع، تألمت كثيراً، لكن إيماني بالله ألهمني الرجاء والأمل.

كان المُدمنون يُسَمّون الهيروين أحياناً *المرأة البيضاء*، والتي ينهار حبيبها الواقع تحت سحرها حين تتركه. وتغريه بشكل خفي وتعده بالجنة التي لا يستطيع عالمه الذي يغلب عليه الوحدة تقديمه له. وبعد أن يتعلق الضحية بسمُها،

تتحول وتصبح العدو الذي يقود ضحاياه للجحيم بالتدريج. وتخدعه بشرها وفي النهاية تُدمِّره.

وبعد أن يدخل في الفخ، يصبح مُدمن المخدرات الواقع تحت سحرها ضحية وسجيناً للمرأة التي سحرته.

نشبت المخدرات مخالبها في "ستيفان". وبدأ ينخدع مُجدداً بأكاذيبها. كان قد بدأ يشعر أنه قوي، وقرر أن يحاول بنفسه مرة أخرى. كان يظن قائلاً: "المخدرات لا تمتلكني، الآن أصبحت أكثر قوة". لكن الهيروين ليس بالأمر الذي يؤخذ باستخفاف. بل أنه يأسر سجينه بشباكه ويخضعه ويسود عليه ويجعل منه عبداً له.

قرر "ستيفان" أن يخضع للعلاج الدوائي. وأعاد التواصل مع الدكتور المُعالج، الذي كان يُتابع حالته حتى يُحدد له ما يجب تناوله. استمر في العلاج لمدة أسبوع واحد، ولم يكن له النتائج المتوقعة، وذلك لأنه كان يشم المخدرات في نفس الوقت. اصبح الإنحدار شديداً وقاسياً، وكأنه قد وصل إلى قاع الهاوية. في كل مرة من مرات الانتكاسة، كان سقوطه ينزل لمستوى أكثر عُمقاً، واستهلاكه للمخدرات يكون أقوى وأشد. أصبحت الآن المُقاومة مستحيلة. حاولت "ميكي" بكل

وسيلة، مساعدته على إيجاد حل للخروج من هذا الدمار. وأخذت المُبادرة بأن اصطحبته إلى أحد الأطباء المتخصصين، ورغم عدم انفتاحه على هذا النوع من الخطوات، إلا أن "ستيفان" أخذ يُتابع مع واحد أو اثنين من المُشيرين، ثم بسرعة ترك كل هذا. فقد شعر أن هذا لا يفيده شيئاً شخصياً، ففقدت الدافع للاستمرار في هذه العملية لأن مشاعري لم تعد تستسيغ هذه المحاولات غير المجدية. وفضلت ألا أتدخل. تركتهم لاجتياز خبرتهم الخاصة في محاولة الهروب حتى يدركون عدم إمكانية الوصول لحل بهذه المحاولات الواهية.

عادت "ميكي" تتصل بي من حين لآخر. وقد بدأت تفقد الأمل، ولم تكن تعرف إلى أين تتجه ولم تعد تستطيع تصديق وعود "ستيفان" لها. وبدأت تفقد صبرها، فقد تعبت كثيراً من رؤيته باستمرار تحت تأثير المخدرات، ولم تعد قادرة على الاستمرار في الحياة التي أصبحت سمتها الإحباط. وأصبحت حياتهما مزيجاً من التهديد والابتزاز. وبدأ وهم "ستيفان" بإمكانيته على الخروج من إدمانه يتلاشى. وشعرت بالدهشة لاستمرارها في الحياة معه، على

الرغم أنهما لم يكونا متزوجين! هل لازالت تحبه، محبة عمياء أم شفقة؟ سألتها: "فكري في نفسك يا ميكي!".

كانت تقضي الأيام في مراقبته، وكونّ أنها تفعل ذلك إلى جانب عملها هو الجحيم بعينه. حكت لي أنه من وقت لآخر وخلال غيابها لفترات قصيرة، كانت تغلق عليه باب الحمام حتى تمنعه من الخروج. وكانت أحياناً تهدده بأن تطرده من البيت، إذا أصر على الاستمرار في الانحدار، دون محاولة الخروج من هذه الدائرة. لكن إدمانه بدأ يأخذ مظاهر مؤلمة، وخاصة عندما بدأ يشعر بعجزه على الانتصار. ولم يكن يريد أن يسمع عن العلاج في مركز التأهيل مرة أخرى. وفي وسط أزمته، بدأ يفقد السيطرة على عجلة قيادة سفينة حياته، المتجهة نحو الجرف المرتفع. ولم يعد هناك مكان يستطيع فيه أن يرسي سفينته وسط ذلك البحر الهائج. فهل سيستطيع السيطرة على المجداف؟ وهل سيستطيع التجديف والوصول لشاطيء الأمان، فقد كان يُبحر ضد تيار نهر حياته؟.

في وقت الإحباط القوي، الذي كان يجب على "ميكي" أن تتركه فيه، ظلت "ميكي" متماسكة ومُصيرّة على المواصلة

معه. فقد غلبتها مشاعر الحب، وقد كانت مرتبطة فقط، بما يمكن أن يكون عليه "ستيفان" دون المخدرات. كانت تتخيله وهو خال من الإدمان، وكانت تتأمل الصور والأعمال الفنية، التي كان قد قام بها في صغره، أثناء فترة الدراسة والتي وضعها في ملف وأهداها لها. كانت تقول: "هذه الهدية هي أفضل ما قدَّمه لي ستيفان". كانت تُحاول التمسك بحلمها بشكل شرعي. وبشكل ساخر، أصبحت تأخذ دور المنقذ وبشكل غير واعٍ بدأت تجد نفسها في موقف الاعتمادية معه.

لم يكن "ستيفان" راغباً في الاستمرار في العلاج، فطلبت "ميكي" نصيحتي. وسألتني عما إذا كان هناك أي مخرج آخر لهذا الموقف؟ بدأت أتحدث إليها عن طريق الخلاص الذي اكتشفته حديثاً، وعن محبة يسوع المُتاحة للجميع والتي قبلتها في حياتي. أخذت أصلي من أجلها بشكل مستمر. ولكم تمنيت أن تفهم هذه الآية: "وَلكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ". (يو٤: ١٤).

في ذلك الوقت الصعب إذا لم أكن أمتلك الإيمان في قلبي، أعتقد أنني كنت سأفقد كل الأمل. لا أعرف ما قد كنت

سأفعله، وماذا سيكون اتجاه قلبي؟ هل كنت سأفقد الأمل وأقول لنفسي: "لا يوجد أمل، فقد جربت كل محاولة ولا يمكنني عمل أي شيء آخر؟" ياله من امتياز عظيم أن نكون أبناء لله، وأن نعرف أننا أعزاء على قلبه. لم يكن الله بعيداً عن آلامي، ولم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يعيقه عن حملي على الأكتاف، والعبور بي في هذه البرية القاحلة. كان راعي الكنيسة وزوجته، يحيطاني بكثير من المحبة والاهتمام. أشعر بالامتنان الشديد أيضاً، لأعضاء الكنيسة الأعزاء من أخوة وأخوات، كانوا مصدر تعضيد وتعزية لي. كان الكثيرين يُصلُّون من أجلنا. فياله من أمر رائع أن تكون عضواً في عائلة الله، التي تميزها الشركة والمحبة.

"فَرَحًا مَعَ الْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ الْبَاكِينَ" (رومية ١٢:١٥).

أحياناً، وعندما يزداد شعوري بالوحدة والعزلة، كنت أشعر بالاحتياج للحديث مع مؤمنين آخرين، ممن كانت لهم تجارب سابقة مع المخدارت، لأشاركهم بما يدور في قلبي كأم أحد المُدمنين، وحتى أسمع إجابات عن أسئلتي وحيرتي. في أحد الأمسيات، التي كنت أشعر فيها بالتعب الشديد، اتصلت بالقس "نوربرت" والذي كنت أحتفظ بعلاقتي معه.

شرحت له موقفنا وطلبت منه النصيحة. وفي المقابل، سألني أسئلة عن ابني. بدأ يميز من صوتي مدى الآلام التي أعاني منها كأم. أخذ يعزيني بكلمات مريحة وباهتمامه وفي نهاية حديثنا، قال لي بكل المحبة التي يمكن أن يظهرها مؤمن لأخيه المؤمن:

- دعينا نصلي.

وببساطة أخذ يصلي معي على الهاتف. الصلاة هي قوة هائلة. أبونا السماوي يستمع لشكوى أبنائه ولا يتركها بلا إجابة. شعرت بالتعزية وبتجديد الإيمان. بينما أكتب هذه السطور وعندما أتذكر هذه اللحظات لا أستطيع أن أمنع عيني عن البكاء. "شكراً يا رب لأجل محبتك. شكراً لأجل أولادك الذين وضعتهم في طريقي".

في نفس الأسبوع تلقيت تشجيعاً كبيراً من القس "كلود"، المعروف بأعماله الرائعة وسط شباب المُدمنين بجنوب فرنسا. وكان يُحارب المخدرات في أرضها في الشوارع وفي وسط أوكار المخدرات الساخنة. لازلت أُقدِّر ما قاله لي في الهاتف في نهاية حديثه معي:

- لا تنسي أن تُسبِّحي الله. فهو لن يطلب ذلك منك!

أخذت أتأمل كثيراً في هذه العبارة. ففي انشغالي بمشكلتي، لم أكن أشعر بالرغبة في تسبيح الله. فقد كانت لديَّ الأسباب التي تعيق هذا الأمر: كان الألم شديد، كيف يمكن لقلبي أن يُسبِّح؟ كان هذا صحيحاً، فعلى الرغم من شعوري العميق بالامتنان لمعرفتي بالرب الإله، إلا أن صلاتي كان يغلب عليها الطلبات والتضرعات. لكن بعد ذلك، وخلال إيماني الذي أخذ يزداد، بدأت أطيع أكثر هذا التحريض على العبادة والتسبيح حتى خلال المحن.

أصبحت الأخبار عن "ستيفان" نادرة، وكانت "ميكي" هي من تنقل لي أي أخبار جديدة. ففي الحقيقة، كانت هي الرابط الوحيد الذي يربط بيني وبين "ستيفان". وبسبب ازدياد العزلة أكثر وأكثر، وبسبب المخدرات توقف "ستيفان" عن كل ما كان معتاداً عليه في حياته. ولم يعد راغباً في رؤية أحد، حتى جدته وحتى أمه. وظل وحيداً مع الهيروين! في أعماق نفسه لم يكن يُريد هذه الحياة. فلم يختر المخدرات، بل هي التي اختارته بسبب قوتها. على الأقل كانت المخدرات هي التي تُعطي الشعور بالوجود وبأنه لا يزال حي.

أما من جهتي، فقد كانت أكثر الفترات صعوبة، هي تلك الفترات التي كانت المسافة الجغرافية تفصلنا عن بعضنا البعض. فمن جهة كنت دائمة التفكير والتساؤل عن شكل حياته اليومية. ومن جهة أخرى، وبسبب تصرفاتي المزاجية، كان يجب عليَّ تعلم ضبط النفس وعدم الاتكال على قوتي الشخصية، بل على قوة أبي السماوي والثقة فيه. لكني أستطعت التعامل مع هذا التدريب الصعب...

البقاء ساكنة كان أمراً ثقيلاً عليَّ. فبدأت أقوم بكل ما يمكنني القيام به، ظللت أبحث وأتعرف على الهيئات المسيحية التي تساعد المُدمنين. وصلت لأحد الهيئات المسيحية، والتي تساعد الشباب في محنهم، وكانوا على استعداد للترحيب بـــ "ستيفان"، على الرغم من اختلاف جنسيته. لكن لم تكن هذه هي المشكلة الحقيقية، بل كانت المشكلة عدم قبول "ستيفان" لهذه الفكرة. فوضعت على جنب عناويين مثل هذه المراكز. كنت أريد أن أظل مؤمنة أنه سيمكنني استخدامها يوما ما.

وفي صباح أحد الأيام، اتصل بي "أنطوني"، وقال لي في ذعر:

- لم يعد "ستيفان" للبيت منذ ليلتين، و"ميكي" لا تعرف أين ذهب "ستيفان".

قلت له بألم شديد:

- ماذا؟ يجب أن نفعل شيء...

- لقد ذهبت لأفتش عنه في الأماكن التي قد يكون موجوداً فيها.

- لابد أن نُقدم تقريراً عن اختفائه للبوليس. هل قامت "ميكي" بذلك؟.

- لا أعرف.

- سأتولى أنا هذا الأمر.

وبدأ الشك القاتل يملأ قلبي، وبدأت أتخيل العديد من المشاهد المُرعبة: أنه قد تورط مع أحد تُجار المخدرات في مشكلة ما... أنه قد تناول جرعة زائدة من المخدرات سببت له غيبوبة أو قضت عليه... أو أنه راقد في أحد المراحيض العامة... "يا رب، أتوسل إليك أن تحمي "ستيفان" وتنقذه. أين هو؟ أثق أنك تعرف مكانه. قل لي من فضلك. لا تتركني في هذه الحالة". عقدت يديَّ وأخذت أبكي، وكنت أحياناً أركع، وأحياناً أتحرك في الحجرة جيئة وذهاباً،

وأخذت أتوسل إلى الله بلا انقطاع. مرت عشرون دقيقة من الذعر، وبعدها دق جرس الهاتف المرعب. وبتردد تناولت الهاتف.

وكان المتحدث هو "أنطوني".

- وجدناه. ذهبت لوسط البلد ووجدته هناك، وكان شكله يُثير الشفقة! ولأطمئنك أعطيته كارت تليفون وطلبت منه أن يتصل بك فوراً. لا تشغلي خط الهاتف فسيتصل بك.

"شكراً يا رب! شكراً يا رب. فقد استجبت لصلاتي". ابني حيٌّ. أخذت أُسبِّح وأشكر الله والدموع تملأ عيني. وبالفعل اتصل بي "ستيفان" بعد ذلك بوقت قصير. كان صوته ضعيفاً وذهنه مشتتاً. لم تكن "ميكي" في البيت، ولم يستطع انتظارها لأنه لم يكن لديه مفتاح البيت. كان بردانا وجائعاً. وكان يشعر باحتياجه لأخذ حمام وهذا سبب له إزعاجاً شديداً. نصحته بهدوء وبصوت مطمئن أن يذهب لجدته. لكنه لم يشعر بالجرأة على فعل ذلك.

فعاد لصديقته والتي رحبت به مرة أخرى. لم يكن "ستيفان" يختلط مع مُدمنين آخرين، فلم يكن ينسجم معهم، ولم يكن يتعامل معهم كثيراً. فلم يكن عالم المخدرات يروق

له، ولم يكن يحب التسكع في الشوارع مع مُدمني المخدرات. خلال هذين اليومين، كان تائهاً وحيداً مثل المتشردين، فقد قضى الليلة الأولى مع خدمة جيش الخلاص، والتي إحدى وظائفها هي الاهتمام بالمشردين ومساعدتهم، والليلة الثانية قضاها بجوار مكتب الانتظار في محطة القطار. وبسبب عدم قدرته على الاستحمام، لم يستطع احتمال الحياة في الشوارع. ومنعته حساسيته وتعوده الحياة المريحة من الاستمرار في حياة الإهمال والتشرد.

ففي عالمنا الفاسد، والذي يتسم بالمعاناة والتدهور، لا يستطيع مُدمن المخدرات التعايش فيه بشكل طبيعي. ففي كل مرة تكون الكرامة هي الضحية. فالعالم الذي نعيش فيه يحتقر بشكل شديد كل فاقدي الهوية. وقد غاص ابني حتى العنق في وحل طريق المخدرات المتعرج. وقيدته بالكثير من رباطاتها.

بعد وقت قليل، وجدت "ميكي" "ستيفان" في أكثر المواقف المأساوية والتي تدعو للرثاء. هل كان ذلك بسبب جرعة زائدة من المخدرات، أم بسبب آلام أعراض الانسحاب؟ لم تكن لديها الرغبة في بحث هذا الأمر. ولم تكن قادرة على

رعايته في ذلك الوقت. فأتى أنطوني لمساعدتها وأخذه ليعيش معه في بيته. ولحسن الحظ كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع. فاستطاع مراقبة أخيه لمدة ٢٤ ساعة في اليوم. سبب هذا الموقف ترابطاً بينهما داخل هذه الشقة الصغيرة. فقد تخلى عن فراشه لينام عليه أخيه، واستلقى هو على الأرض داخل إحدى حقائب النوم، وأخيراً استطاع أن يغلق عينيه وينام. كانت ليلة بشعة. اتصل بي "أنطوني" في منتصف الليل. وكانت إحدى المرات التي سببت لي ذعراً، مما جعلني أقفز في الخوف من فراشي. قضينا تقريباً ساعة نتحدث معاً عبر الهاتف وفي تشجيع بعضنا البعض والصلاة. كان "ستيفان" يُعاني بشدة بسبب أعراض الانسحاب. كان يهتز بعنف. ولم يكن يُريد الاستمرار داخل هذا المعتقل، فأخذ يتوسل لأخيه أن يعطه ١٠٠ فرنك. استمر في الإصرار والإلحاح على أخيه، واستمر في المناورة للحصول على المال من أخيه، أو على الأقل ليتركه يخرج. وبالطبع أخذ يردد الأغنية المحفوظة بأن هذه المرة هي المرة الأخيرة !.

– أعدك، إنها المرة الأخيرة. سأرد لك المال. أعدك.

- لا، أنت تتكلم فقط.
- أتوسل إليك.
- لا! أنا لا أثق فيك.
- إذاً على الأقل دعني أخرج. أقسم لك، إنها المرة الأخيرة.
- أنت تهذي!

ظل "أنطوني" ثابتاً على موقفه. أمام إصرار أخيه العنيد. لم يستطع "ستيفان" التحرك. فقد كان ضعيفاً جداً ليحاول الخروج بالقوة، لأنه كان يعرف أن أخاه أقوى منه. كان يتطلب مرافقة "ستيفان" في فترات الاحتياج للمخدرات داخل بلده وحيث يعرف أين يستطيع الوصول للمخدرات، مراقبة مضاعفة. قضيت بقية الليل في الصلاة. وقبل الفجر، اتصل بي "أنطوني" مرة أخرى وقال هامساً:

- لقد نام أخيراً، وأصبح أكثر هدوءاً. أشعر بالتعب الشديد، سأذهب وأحاول أن أنام قليلاً أنا أيضاً.

شكرت الله لأجل حضوره وسط العاصفة. وعندما ذهبت لأنام، أخذت أفكر في إحدى العبارات التي كنت قد قرأتها مؤخراً: "لا يعدنا الله بعدم التعرض للعواصف، لكنه يضمن لنا الحماية وسط العواصف". نعم هذه عبارة حقيقية، فلم

يعدنا الله أبداً بحياة تخلو من المشاكل، لكنه يعدنا ألا نُجرب فوق ما نستطيع أن نحتمل، ويعدنا بأن يرعانا، نقرأ ذلك في (عبرانيين ١٣: ٥) "لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ".

بعد هذه الليلة المليئة بالتحدي، شعرت بالاحتياج لأتنفس بعض الهواء. فخرجت أتمشى حول المنزل لبعض الوقت. فهبت رياح دافئة. استمعت لصوت الرياح تحرك الأشجار ونظرت لانحناء الأغصان ورقص الأوراق. أخذت أقرأ بعيني الممتلئتين بالدموع رغم أن ذلك لم يكن سهلاً. كنت حزينة، لكن عشت هذه اللحظة في السلام الذي أعطاه لي يسوع. وأدركت أنه يمكنني الحياة بهذا السلام فقط، إذا وضعت ثقتي فيه توكلت عليه. واختبرت هذه العطية الثمينة.

مرت هذه الفترة العصيبة من الفطام، وبدأ "ستيفان" يشعر بصفاء الذهن مرة أخرى، وبإمكانية المحاولة للتخلص من المخدرات. وقرر بنفسه الرجوع لمركز التأهيل مرة أخرى. هل يا ترى كان ذلك، بسبب شعوره بأنه لا يوجد طريق آخر؟ أعجبت بقراره الحكيم على الرغم من عدم ثقتي في النتائج. شعرت بأن مُدمن المخدرات، كالسجين الذي في إحدى اللحظات يتسلق الأسوار العالية، في محاولة للهروب

من سجنه الخاص، الذي تخلص من مفاتيحه بنفسه. ويحاول مرة أخرى، لكن يديه، ورجليه مقيدتان في مكانهما. وبسبب محاولاته يتمزق جلده في الأسلاك الشائكة. ويصبح الأمر صعباً، صعباً جداً، فيسقط. لكن طالما استمرت أنفاسه، سيستمر في المحاولة بعد المحاولة حتى يُصاب بالتعب.

في صباح أحد الأيام، شعرت برغبة شديدة في الاتصال بمركز التأهيل. كنت آمل التحدث إلى الواعظ، حتى احاول معرفة بعض المعلومات منه، لأنه كان يتواصل مع المرضى في هذا المركز. لكنه لم يرد التحدث إليَّ بشكل صريح ومفتوح عن عمله الذي يعتبر الاحتفاظ بأسراره جزءاً من أمانته في هذا العمل، ولم يرد حتى الإدلاء عن أي شيء من أحاديثه مع ابني. لكن على أية حال، تبادلنا حديثاً ودوداً ونصحني بقراءة كتابٍ عنوانه "شفاء الذكريات" للكاتب "ديفيد أيه سيماند"، وهو راعي ومشير متخصص في مشورة العلاقات، وأصبحت تواقة لشراء هذا الكتاب. قرأته بحماسة واهتمام شديدين. يتعامل الكتاب مع معجزة الشفاء الداخلي، ويتكلم عن الكثير في هذا الموضوع. بعد أن انتهيت من قرائته، شعرت أنني على عتبة رحلة طويلة من

مراحل الشفاء. هذا الاقتراب العملي شجعني على التمسك بوعد الله لشفاء الذاكرة من الأحداث المؤلمة. لكن في نفس الوقت شعرت بالإحباط، بسبب عدم استطاعتي الانتظار حتى أرى ابني يرجع ليسوع. فهل عملية الشفاء هي دائماً طريق طويل؟ ألم يكن يسوع يشفي الناس مباشرة وفي الحال؟ أليس هو إله المعجزات؟ كنت أنتظره هو، هو فقط. لكن بالتأكيد كان يجب عليَّ تسليح نفسي بالصبر والمثابرة. ذلك أن توقيته يختلف عن توقيتنا.

وبسبب ان الأسرة لابد أن تبتعد تماماً عن المركز، لم نستقبل أية أخبار عن حالة "ستيفان". وبعد فترة طويلة من الصمت، قررت أن أتصل بالمركز حتى أحاول الحصول على أية أخبار، أو حتى صدى للأخبار. طلبت التحدث للمدير. قالت لي السكرتيرة:

- هذا غير ممكن!

ومن نبرة صوتها، شعرت بعد اهتمامها. ولا أدري ما الذي أصابني، فقد وجدت نفسي أقول بشكل مفاجيء وسريع:

- لكن ما معنى المحبة بالنسبة لكِ؟

– آه! لكن لعلمك المحبة ليست هي ما نهتم به!

إجابتها جعلتني أقفز من مكاني! فهذه العبارة غير المتوقعة صدمتني. ولم أجد أية كلمات أخرى لأرد عليه، فاختصرت هذا الحديث. شعرت بالسخط الشديد. وشعرت بالجهل الشديد! فكيف لا تكون المحبة أولوية بالنسبة لهؤلاء الذين يعملون مع مُدمني المخدرات؟

يقترح بعض المتخصصين المعروفين في مجال العلاج الإدماني، على آباء المدمنين عند نقطة معينة، أن يفتحوا باب البيت ويطردونهم خارجه ليتركوهم يواجهون مصيرهم. لأنه طالما لديهم سقف ينامون تحته وطعام يأكلونه وحمام يستحمون فيه، فسيسهل هذا عليهم الحياة الإدمانية. فيجب أن يغرق المُدمن ويصل لقاع الحفرة، ويغوص في الوحل حتى يكره وضعه، وربما عندئذ يلمع بعض الأمل، ويبدأ يتكون لديه الدافع للتخلص من الإدمان. كثيراً ما فكرت في هذه النصيحة، لكن شخصياً، لم أشعر أنها تهمني بشكل مباشر، بما أن إبني لا يعيش معي في البيت، لكن قد يحدث هذا لفترة قصيرة.

لكن الآن، بدأت أبتعد عن الموقف بشكل كاف، يجعلني أدرك أن جعل الباب مفتوحاً دائماً له، أمر لا يفيده بل إن ذلك يساعده على الاستمرار فيما يقوم به. حقيقة إن هناك ٥٠٠ كيلومتر تفصلنا عن "ستيفان" جعلت الأمور أكثر تعقيداً، لكن على المدى الطويل كانت مفيده لـــ "ستيفان". إذا كنا نعيش تحت سقف واحد، فلم أكن لأملك القلب الذي يسمح لي بإخراج ابني خارج البيت. بالتأكيد وبصراحة، لم أكن لأستطيع ذلك. فالآلام والعذابات الذي يتعرض لها، لن تعطيني الجرأة على فعل هذا الأمر. أخذ هذه المخاطرة التي لا يمكن التراجع فيها سيزعج ضميري بشدة، وبالتالي لن أستطيع تحمل هذه المسئولية. أشعر بالامتنان أنني لم أضطر لمناقشة مثل هذا القرار، لكني أفكر ملياً في غيري من الآباء: الجحيم دخل بيتكم، وقد وجدتم أنفسكم وسط هذه المحنة. وستحتاجون شجاعة كبيرة وكثيرة من التفهم لتنفيذ هذا الاختيار الضروري. للمؤمنين منكم أريد أن أشجعكم للخضوع التام لله القادر أن يعطيكم البصيرة والحكمة التي تحتاجون إليها. ألا يعرف هو ما هو أفضل بالنسبة لنا؟.

هذه الطريقة الخاصة، جعلتني أذكر حديثاً دار بيني وبين أحد الأطباء، حيث ذكر لي بعض التعليقات الخاصة. قال لي أن وباء المخدرات يلوث كل البيئة المحيطة بالمُدمن، فهو يؤثر على أسرة المُدمن، وبالتأكيد يؤثر على كل النواحي العائلية. وفي هذا الكابوس المُخيف، الذي لا يمكن قهره، قد تُفضّل بعض الأُسَر، أن ترى إبنها ميتاً، على أن تراه يفقد نفسه بسبب المخدرات، حيث تكون حياته ليست سوى عذاب وألم. وعلى الجانب الآخر، نجد أن المُدمنين يقتلون آباءهم على نار هادئة، تجعلهم يعيشون حياة العذاب والاستشهاد. ومثل هذه الصراعات تغذي النفس البشرية بطريقة شرعية، تؤدي في النهاية إلى مشاعر الفشل والأفكار الانتحارية. ولأن إمكانياتنا وقدراتنا البشرية محدودة، فنحن نحتاج إلى مُخلِّص. مُخلِّص لديه كل القوة وكل الحب القادر على إعطاء الحياة مُجدداً لهؤلاء السالكين في المحن. "إِنْ سَلَكْتُ فِي وَسَطِ الضِّيْقِ تُحْيِنِي. عَلَى غَضَبِ أَعْدَائِي تَمُدُّ يَدَكَ، وَتُخَلِّصُنِي يَمِينُكَ" (مز١٣٨: ٧). وهذه الأخبار السارة يمكنها أن تتأصل داخل القلب المُحترق الذي يطلب مصدر الخلاص.

الفصل الحادي عشر

صراع من الداخل والخارج

مر الوقت دون حدوث تغييرات كثيرة. إلا أن الأحداث لم تمهلني الراحة: فقد أصيبت أمي بجلطة في المخ ونقلت إلى المستشفى. ذهبت للمكوث مع أختي لأكون قريبة من المستشفى. أما بالنسبة لـــ "ستيفان"، كان في مركز العلاج كان يخرج في أجازة نهاية الأسبوع لزيارة جدته. كانت أمي قد بدأت تستعيد وعيها، لكنها لم تتعرف على حفيدها في البداية، بعد قليل بدأت تتعرف عليه، وأخذت يديه بين يديها وقالت له بصوت منخفض:

- لن تفعل ذلك مرة أخرى، أليس كذلك؟

هز "ستيفان" رأسه بالإيجاب وقبلًها بخجل. أزعجته كلمات جدته القليلة. هل سيستطيع تنفيذ وعده؟ بعد شهور قليلة، ذهبت أمي لترتاح بين ذراعي الرب حاملة معها هذا الأمل.

مر الربيع وبعده الصيف. ومرة أخرى، لم يستمر "ستيفان" في العلاج لنهايته. فلم يستطع الالتحاق بمجموعة علاجية، كانت فكرة غير مُريحة بالنسبة له. "هذه المجموعة لا

تناسبني. قد تكون ناجحة للآخرين ولكن ليس لي". كرر لنا ذلك عدة مرات. ولأنه شعر أنه أصبح مؤهلاً للمحاولة مرة أخرى من جديد، فقد استأجر شقة صغيرة والتحق بعمل. هذه المرة، لم تكن "ميكي" معه. فقد توقفت عن تصديق وعوده، وتخلت عن الصراع لأجله، وقررت ألا تتورط معه في مشكلته. فقد انتهى الأمر بالنسبة لها. تركته وانتهت علاقتهما معاً.

عاش "ستيفان" صراعاً لا يرحم لعدة أسابيع. لكن لحسن الحظ، كان يتقابل بانتظام مع مُشير مُتخصص في الإدمان. لكنه بدأ يشعر بالوحدة الشديدة، حيث لا أصدقاء من حوله. فلم تكن جدته موجودة لتمده بالتشجيع. وكذلك لم يكن أخوه معه ليهتم به، فقد كان "أنطوني" يدرس في أحد كليات اللاهوت في فرنسا تلك السنة. لكن بيت أختي كان مفتوحاً له دائماً كلما أراد زيارتها. ماذا يمكنه أن يفعل في المساء، وأثناء الأجازات في شقته الصغيرة وهو جالسٌ يخاطب نفسه؟ كيف يعيش في مدينة يدعوه كل شارع فيها إلى الذهاب في اتجاه معروف لديه، وكيف يمكنه تجنب رؤية أحد الوجوه المعروفة لديه من الدائرة التي يريد الهروب

منها؟ فالتجربة تصبح غير محتملة... والهيروين يصبح ملاذه. فهو الوسيلة الوحيدة التي تجعله قادراً على نسيان وحدته، ونسيان حياته المُحزنة، والخالية من المعنى. وهو القادر على جعله يمتليء بالسعادة. وهو الحياة حيث لا تشرق الشمس أبداً في سمائه الكسول.

للأسف، لم يكن لديه هاتف، وكان عليَّ انتظار المرات التي يتصل بي فيها من كابينة التليفون العمومي. كنت أكتب إليه رسائل بريدية، آملة أن تجعله يلمس اهتمامي ودفء محبتي. كان ضرورياً أن يعرف أن لديه أبوين يحبانه بشدة وأن لديه أسرة. وبسبب شعوري العميق بوحدته، أسرعت في تشجيعه للمجيء وقضاء بعض الأيام معنا في البيت. كان الكريسماس على الأبواب ولم تكن هناك مناسبة خاصة تجمع الكل معاً. وصل بالقطار. كان منظره الواهن ووجهه الشاحب وعيناه الغائرتان، تعلنان بوضوح أنه لازال يتناول المخدرات. كسر قلبي عندما رأيت كيف تدهورت صحته. لكن رغم ذهولي، لم أندهش كثيراً، فقد كان أمر متوقعاً. وفي داخل أعماقي كنت مُقتنعة أن يسوع المسيح هو وحده القادر على تحريره، وكان لديَّ إيمان بهذا. أثناء هذا الموسم

الاحتفالي، حاولت أن أغمره بمحبة دافئة وجو من التفهم، وحاولت ألا أُظهر قلقي. أخذت أنا و"أنطوني" نُعبِّر لـ "ستيفان" عن نعمة الله، وعن محبة يسوع التي اختبرناها في حياتنا. لم يكن ضد الاختبار، ولم يكن غير مُبال، لكنه ظل مُتخذاً موقف المُدافع بتكراره دائماً لهذه العبارة: "هذا مناسب لكما، لكنه لا يناسبني!".

كنا نُريد قضاء نهاية العام في سويسرا عند عائلة زوجي. عاد "ستيفان" معنا لبيته. زيارتي لشقته الصغيرة والفقيرة، جعلتني أشعر بالاكتئاب. للظروف التي يعيش فيها ابني الضيق الشديد. كان من الواضح أنه لا يزال يتخبط في عالم المخدرات المظلم، وقد فقد كل الأمل في الشفاء. فبينما كانت كل محاولة يقوم بها للتخلص من الإدمان، تعطيه بعض الثقة، وتجعله يشعر أن الأمر مُمكن، إلا أن كل انتكاسة، كانت تجعله يسقط بشكل أسرع، وتزيد من فقدانه الثقة بنفسه. وربما بدأ يشعر بأنه لا جدوى من المُحاولة مرة أخرى، لأنه لم يعد قادراً على التوقف عن الإنحدار إلى أسفل وأسفل حيث الظلمة والبرودة.

قبل عودتنا للبيت بثلاثة أيام، اقترح عليَّ زوجي فكرته

بخصوص ابني، وقال لي عن خطته لتنفيذ هذه الفكرة. كان "ستيفان" معنا في السيارة عند ذهابنا لأختي. وفجأة، توقف "موريس" بجانب طريق داخل إحدى القرى والذي كان مُغطى بالجليد، خرج من السيارة وطلب من ابني أن يخرج معه. ذهل "ستيفان" ولم يفهم هذا الموقف المفاجيء وغير المتوقع، لكنه خرج أيضاً. أخذه زوجي بعيداً وسارا معاً. وطلب مني زوجي أن أنتظرهما في السيارة، وألا أتدخل في هذه المواجهة بين الرجال، والتي ستتيح لـــ "ستيفان" الشعور بالمسئولية. خارج السيارة وفي البرد، بدأ زوجي يضغط على "ستيفان" ويدفعه لاختيار أحد الخيارين:

– سنتركك هنا. وعليك أن تكمل الطريق سيراً على الأقدام. أترى مفترق الطرق هذا. ألا تشير هذه العلامة إلى الطريق؟

– نعم!

– حسناً عندما تصل لمفترق الطرق هذا، يجب أن تقرر بنفسك أي طريق تريد أن تسلك فيه.

– إذا اتخذت الطريق الأيسر، ستتجه في طريق العودة للبيت، وهذا معناه العودة للمخدرات، وعندئذ لن نستطيع فعل أي شيء لك. وإذا اتخذت الطريق المستقيم في اتجاه الذهاب

لبيت خالتك، هذا معناه أنك قررت أن تأخذ طريق الابتعاد عن المخدرات، عندئذ سنأخذك معنا إلى فرنسا، ونحاول مساعدتك مرة أخرى. سنمكث عند "مونيكا" لمدة ١٨ ساعة.

خلال هذا الوقت، وأثناء جلوسي داخل السيارة، شعرت بخوف شديد من رد فعل ابني. وضعت رأسي بين يدي، وتوسلت إلى الله أن يُرشده ويُظهر له الطريق السليم.

كانت المسافة بين هذا المكان وبيت أختي، تحتاج إلى ساعتين مشياً على الأقدام. وكانت هناك مسافة كبيرة حتى يصل لمفترق الطرق، تمكنه من التفكير واتخاذ القرار. كان من الضروري ألا أتدخل، لأن من يعرفني يعرف أنه سيكون من الصعب عليَّ عدم التأثير في الموقف. كان لابد أن يُوَجَّهُ لـــ "ستيفان" إنذار أخير ليشعر ببعض المسئولية. لحسن الحظ في هذه اللحظات، لم يكن تحت تأثير المخدر، ولم يكن يُعاني أعراض الانسحاب الجسدية، مما جعله صافي الذهن. رجع زوجي واستقل السيارة وأكمل "ستيفان" الطريق سيراً على الأقدام. ما الذي كان يدور في ذهنه؟ عندما مرت عليه سيارتنا، لم أستدر للخلف لأنظر إليه. لكن بعد أن ابتعدت السيارة، وعندما أصبح لا يستطيع رؤيتنا،

استدرت ونظرت إليه وفي قلبي أخذت أرسل له التماساً: "خالقك يبحث عنك". عندما وصلنا لبيت أختي جلست في هدوء وكان الألم يملأ قلبي. أخذت أراقب الزمن وأحسب الوقت الذي قد يستغرقه "ستيفان" للوصول إلى هنا. شعرت بقوة أنه قد اتخذ الطريق المؤدي لبيت أختي، وكنت أتمنى ذلك من كل قلبي.

سمعنا جرس الباب، وكانت هذه هي نهاية الساعات القاسية واللانهائية من الانتظار. شعرت بالراحة والفرح. وأخذته بين أحضاني كأنني لم أره منذ فترة طويلة. جعلناه يفهم أن مع اتخاذه هذا القرار، لايزال يحتاج إلى إرادة قوية للاستمرار في طريق التخلص من الإدمان. فكرت بارتياح قائلة لنفسي: "الآن ستسير كل الأمور على ما يرام".

وفي اليوم التالي، أنهى عقد استئجاره للشقة. كان تركه للشقة أمراً سهلاً حيث إن الأثاث لم يكن ملكاً له. وكان يكفينا أن نحمل أغراضه الشخصية، والتي كان يجب أن تكون أقل ما يمكن. خرجنا مع "مونيكا" لتناول الغداء وجاء معنا "ستيفان". وصل للانضمام إلينا بعد وقت قليل وكان سعيداً، كانت حركاته نشيطة بشكل لم أتعهده منذ فترة

طويلة.

قال بفرح:

- أشعر بالجوع الشديد.

- كنا ننتظرك.

قال وهو يخلع معطفه:

- أشعر بالحر، فقد كنت أجري.

كنت سعيدة لرؤيته مبتهجاً ويتحدث معبراً عن نفسه. الآن وقد ترك شقته الرثة ومدينته التي لم يرد أبداً تركها! هل سيختار أن يرجع مرة أخرى للمخدرات؟ لا!

أثناء تناوله للطعام، وقعت عيني على ظهر يديه. وجدت أن عروقه متورمة بشكل غير طبيعي. وكان هذا أمراً جديداً. كارثة! فهذا معناه أنه يحقن نفسه... لم أستطع التوصل لأي تفسير آخر. أخذت أرتجف مثل ورقة الشجر من هول المفاجئة. ولم أستطع تحويل عيني من على عروقه. تمنيت ألا يكون هناك مشكلة أخرى... لا فهذا غير ممكن.. الحقنة.. الإيدز.. لم أشهد رعباً بقدر رعبي من هذه الفكرة. حملتني أفكاري لأبعد من مستوى الألم. كان يتصبب عرقاً، وكنت أعرف جيداً أن قطرات العرق هذه، والتي

تتصبب من جبينه لم تكن بسبب الحر. احتفظت بمخاوفي الشديدة لنفسي، وأجبرت نفسي على عدم إظهارها حتى انتهي من تناول طعامي. فلا يوجد داع لإثارة المشاكل داخل المطعم المزدحم وقت الغداء في ساعة الظهيرة. يحتاج الإنسان للصمود أمام كل هذا الخداع والألاعيب إلى قلب قوي وثابت.

كنت مُتلهفة لمعرفة ما إذا كانت ظنوني صحيحة أم لا. في النهاية، عندما اختليت بـــ "ستيفان" سألته:

- رأيت عروق يديك متورمة منذ فترة، هل هذا من الحقنة؟

قال متلعثماً، وهو يضع يديه في جيوبه:

- لا، ماذا تظنين؟

كان دائماً "ستيفان" يعدنا أنه لن يلجأ أبداً إلى الحقن. فقد كان هناك مخاطرة شديدة، وكذلك الحقن يترك آثاراً في الجسد. كان ظهور العلامات على جسده أمراً لا يطيقه. بينما الاستنشاق أمر مخفي ولا يظهر، لأن المُخدرات تُمتص عن طريق التنفس. لكن، أصبحت الآن أخاف أن يكون قد أصابه الإيدز. في ذلك الوقت، لم يكن ينادى باستخدام الحقن المعقمة كما يحدث اليوم. بعد عدة أسابيع، وبعد انتهاء فترة

الحضانة، قام بعمل التحليل اللازم. وعندئذ شعرنا جميعاً براحة شديدة، عندما ظهرت نتيجة التحليل، وتأكدنا من خلوه من الفيروس. كان شعوراً مريحاً جداً، أن يعود "ستيفان" للبيت طالما كان ذلك في الوقت الذي كان يحتاج فيه لمساعدة. فحقيقة وجود أخيه بشكل غير دائم معه بسبب دراسته حفزته للعودة مرة أخرى للمخدرات. على أية حال، كنت أنتظر تعرضه لأعراض الانسحاب، والتي كانت مؤلمة للغاية! فأمامنا فترة فطام جديدة... مع كل ما تتضمنه من مراحل.

بعد إثني عشر يوماً من عودتنا، استيقظ "ستيفان" مبكراً على أثر آلام شديدة في أمعائه. أخذ يتلوى وكان يتقطع من الألم الذي يتزايد. اتصلت بالطبيب فوراً وشرحت له الحالة. اقترح عليَّ الذهاب به لأقرب مستشفى. كان زوجي قد خرج للذهاب لاجتماع عمل وأخذ السيارة. اتصلت لطلب تاكسي بسرعة. كان "ستيفان" يصرخ ويتوسل إليَّ قائلاً:

- بسرعة! بسرعة يا أمي، الألم شديد... الألم بشع... بسرعة!

كان وجهه يملأه الألم.

- سيصل التاكسي حالاً هيا لنخرج!

غيرت ملابسي، وتناولت حقيبتي في عجلة ونزلت السلم بسرعة. رقد "ستيفان" في مؤخرة التاكسي، كان شعري منكوشاً ولم يكن هناك وقت لأغسل وجهي، وطلبنا من سائق التاكسي الإسراع. كانت العيادة على بعد عشرة كيلومترات، كانت ساعة الذروة الصباحية. وليتجنب التاكسي ازدحام المرور، سلك الطرق الجانبية، كانت رحلة أطول لكن أسرع. ولأن "ستيفان" لم يكن يعرف المنطقة فقد كان يصرخ في عدم صبر ويتوسل قائلاً:

- هل وصلنا؟ ... المكان بعيد!

كانت هذه الرحلة تبدو طويلة بالنسبة لي أيضاً. اتخذ السائق كثيراً من الطرق الملتوية، والتي كانت تبدو لي أكثر طولاً.

- نعم لقد اقتربنا!... ها نحن قد وصلنا.

أخذت أردد هذه العبارة كثيراً، حتى أساعده على الصبر. عندما وصلنا إلى العيادة، أخذوه من يديه مباشرة وأعطوه أحد المسكنات، لكن لم يؤثر هذا في حالته. لقد تألم بشكل أكبر. ثم أعطوه مُسكناً آخـــر. ولدهشة الممرضات لم يؤثر

ذلك على الألم. فأخذت إحداهن جانباً وقلت لها:

- ابني مدمن.

ربما تساعدهن هذه الحقيقة على معالجته.

- أه! فهمت. لن نستطيع إعطاءه مسكناً أقوى. لابد أن ننتظر، حتى ينتهي مفعول المسكن.

وبسبب كل القاذورات التي يتناولها "ستيفان"، لم تستطع المسكنات مساعدته. التف الممرضات والأطباء حوله في محاولة لمساعدته. قال له أحدهم مبتسماً:

- هذا سيعلمك الكثير! أتمنى أن ما حدث معك الآن يعلمك درساً!

لم يجبه "ستيفان"، لكني أظن أن هذا التعليق الصارم قد جرحه. وبسبب الألم الشديد، كان يتلوى بشدة ولم يستطع الأطباء فحصه. جلست عاجزة على أحد المقاعد في أحد أركان الحجرة، وأخذت أراقب ما يحدث، ولم أستطع المساعدة. وفي اللحظات التي كنا فيها بمفردنا، كنت أقترب إليه محاولة تعزيته وتشجيعه. كان يشعر بالأسف لهذا الإزعاج الذي سببه لي والقلق غير الضروري. وقال لي بين نوبات الألم:

- أنا آسف، أنا آسف.

وضعت يدي على كتفيه وهمست له متنهدة:

- لا عليك، فلديك ما يكفي من المعاناة.

أخيراً بدأ الألم في الاختفاء. قال لي ليريحني:

- أصبحت على ما يرام.

كانت نتيجة الفحوصات والأشعة أنه يعاني من القولون العصبي. وكان عليه المكوث أربعاً وعشرين ساعة في المستشفى تحت المراقبة، لكن لم يكن هناك مكان في هذه العيادة. ولذلك تم نقله بعربة الإسعاف إلى عيادة أخرى. رافقته في عربة الإسعاف. وعندما نقل إلى إحدى الحجرات، خرجت لشراء فرشاة أسنان له، ثم تركته بالمستشفى. كنت متعبة جداً فذهبت لأستقل المترو الذي أخذني مرة أخرى إلى البيت.

رجعت في اليوم التالي لأبحث عن "ستيفان". وأخذنا نتابع حالته مع الدكتور، وخلال أسبوعين رجع كل شيء لحالته الطبيعية. كان يجب أن ندعه يسترد قوته، لأن جسده أصبح "خارج نطاق الخدمة" ولا يمكنه استقبال أي شيء آخر. لم يكن يحب حلول الليل، لأن هذا يعني ساعات من الصراع

مع عدم إمكانية النوم. بسبب تناوله المخدرات، أصبح مخه مشوشاً، وبدأت الساعة البيولوجية لجسده تنهار، ولم تعد قادرة على التمييز بين النهار والليل. كان عودة النظام لجسده تحتاج إلى بعض الوقت. كانت ليالي الأرق هذه مُتعبة ومُرهقة بالنسبة له، وكذلك بالنسبة لي. تخلينا عن فكرة وضع منبه في الدور الأرضي، حتى يتسنى له في الأيام التي لا يستطيع فيها النوم النزول إلى الدور الأرضي والاستلقاء في حجرة المعيشة. ذهب على أطراف أصابعه ليشرب كوباً من اللبن ويدخن بعض السجائر. لم يكن "ستيفان" مدخناً شرهاً، لكنه كان يدخن مرة بعد الوجبات، وأخرى قبل الذهاب للنوم، لكنه لم يكن مُدمناً للسجائر. وسمحنا له بالتدخين فقط في المطبخ أو في الحديقة الخارجية. كنت أشعر به حينما يستيقظ رغم محاولاته عدم إيقاظنا. بطريقة ما، أصبحت أعمل كبديل لجرس الإنذار، على الرغم أنه لم يكن من السهل عليه الخروج من البيت. كان باب الدخول والجراج يصدران صوتاً عند فتحهما بسبب أجهزة الإنذار، وكذلك المصاريع لا يمكن فتحها ولو فتحة صغيرة دون إصدار صوت. خلال ذلك الوقت، لم أكن

أخاف سوى من خروجه من البيت. فقد كان متألماً، ومتعباً من حالته البائسة. على أية حال، كان يجب عليَّ الحذر، فقد علمتني الخبرة. أن المخدرات لا تنسى أبداً ضحاياها! في الأوقات التي كنت مسئولة فيها عن مراقبته، كنت أنزل لأنضم إليه وأرافقه، وكان يدور بيننا بعض الحديث. كان أمراً مُرهقاً بالنسبة لي، لكنني كنت أعلم أنه أمر مهم. لم يكن كثير الكلام، وكنت لا أستطيع مُقاومة الرغبة في النوم، فكنت أحاول تنشيط نفسي في تلك الليالي الهادئة بأن أقوم بعمل بعض الأمور البسيطة.

عندما نفكر فيما حدث، وعندما نضع في اعتبارنا كمية النصائح والمساعدة والأدوية والطرق العلاجية التي أعطيت لـــ "ستيفان" من قبل متخصصين، وكذلك الطريقة التربوية التي اتبعها معه زوجي، نستطيع التحقق من ضعف الطبيعة البشرية ومن فسادها.

أكد لي زوجي قائلاً:

– هذه أول مرة أستطيع أدراك ضعف الإنسان أمام مشاكله.

لا أريد أن أقول أن هذه الحلول غير مؤثرة. بالطبع، هي حلول عملية وتساعد الكثيرين، لكنها حلول مؤقته وضعيفة

على المدى الطويل. هل يجب علينا الشعور بالهزيمة، والفشل والاعتراف بهما؟ كم نحتاج للتواضع حتى نُدرك محدوديتنا، ونعترف بضعفنا وبأننا صغار، وأن الله لديه كل القوة؟ "غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللهِ" (لوقا ١٨:٢٧).

المخدرات تسبب إدماناً مضاعفاً: إدماناً جسدياً وذهنياً. في البداية، لا يكون الجزء الثاني دائماً محسوساً ومدركاً، لأنه يحدث بشكل تدريجي، لكن بالتأكيد المخدرات تغزل خيوطها داخل المخ مثل عش العنكبوت، وتأثيرها المدمر متأصل بشكل لا يقبل الشك في الذاكرة. قرأت في أحد النشرات الإخبارية مقالاً مكتوباً: "بين جميع المخدرات، الهيروين هو أكثرها خطورة في الإدمان النفسي". هذه المقولة حقيقية. فالامتناع الجسدي عن الهيروين، أمر محتمل على الرغم من أن فترة التخلص من الإدمان الجسدي تكون شديدة الصعوبة. لكن الإدمان الذهني والنفسي أمر آخر! فالذهن يحتفظ بذاكرة مقدسة للهيروين. كان "ستيفان" يقول لنا كثيراً: "أحتاج لشيء أكثر قوة من المخدرات. حتى أتخلص من الهيروين".

أي شيء أكثر قوة من المخدرات؟ كان لديَّ رجاء كبير أن يجد "ستيفان" هذه القوة، والتي هي نعمة الله. كانت صلواتي هي توسل لله حتى يُشرق في النهاية بنوره في قلب "ستيفان".

" أَنَا (يسوع) هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ" (يوحنا ٨: ١٢).

الفصل الثاني عشر

آفاق مُشجّعة

بدأت حياة "ستيفان" تصل لبعض التناغم، وبدأ يسترد بعضاً من صحته الذهنية. مر الوقت ولن يستطيع الاستمرار دون التحرك في القيام بشيء مُفيد. كيف يمكنني مساعدته؟ سيكون من السخرية أن نقول أن سنه نموذجي للبدء في امتهان مهنة جديدة، أو أن بإمكانه التقدم لإحدى تلك الوظائف الشائعة، والتي تتطلب *موظفاً شاباً نشيطاً!* لا يمكن للمرء أن يلاحق الزمن، وكان يجب علينا مواجهة الحاضر. كان لابد له أن يجد وظيفة. فالعمل سيشغله وسيدفعه أن يقوم ويبدأ حياة جديدة مُستقلة ومسئولة. كان عليه أن يُعاود تعلم كيفية الانسجام داخل المنظومة الاجتماعية، وأن يتعلم رؤية شروق الشمس في الصباح، ولذلك كان لا غنى عن التحاقه بإحدى الأنشطة المنتظمة. لكنه كمواطن سويسري لم يكن ممكناً له العمل والحصول على مرتب داخل الحدود الفرنسية. ففكرنا في أحد الأعمال التطوعية. وكان ذلك هو إحدى موضوعات الصلاة لديَّ. ولم أحتج للبحث كثيراً، فقد

فتح الله باباً رائعاً، عملاً تطوعياً مع إحدى الهيئات التي تعمل مع الطلبة: *أغابي فرنسا (كامبس كروسيد للمسيح)*. قَبِل "ستيفان" هذا العمل دون أن يعرف بالكامل ما سيقوم به. كان مكاناً قريباً يمكنه الذهاب إليه سيراً على الأقدام أو باستخدام الدراجة. كان العمل يتضمن بعض الأعمال المكتبية، مثل تحضير البريد أو طباعة بعض الأوراق وحزمها، وكذلك الاهتمام بالحديقة، وري الزرع، وتسوية الأشجار، وجز الحشيش. كان كل ذلك وسط جو مسيحي حيث كان الجميع يُظهرون له الثقة والترحاب واللطف. هذا الجو الدافيء الودود جعله يشعر بتحسن كبير. وأصبح أكثر انفتاحاً ورغبة في التحدث عما يقوم به معنا.

كان يقول أحياناً:

- المسيحيون متميزون وهناك شيء مختلف بشأنهم.

قال المسئول المُشرف على عمله في أحد المرات، إنه لم يكن يتخيل أن "ستيفان" مُدمن للمخدرات. كان أمراً عجيباً أن يجتاز هذه الفترة من الإدمان دون أن تتسبب له المخدرات في مشاكل كبيرة، هؤلاء الذين لم يعرفوه أثناء فترة تعاطيه المخدرات لم يستطيعوا تخيل أنه كان يتعاطى المخدرات.

فتأثير المخدرات لم يمحُ حساسيته ولم يلغِ خصاله الحميدة مثل الاحترام واللطف والأمانة والنزاهة، أو الرغبة في المساعدة والاهتمام بالآخرين.

كنت أُحدّثه بشكل تلقائي ومتواصل عن الله، لكن فهمت بسرعة أنني أفعل عكس ما يجب عليَّ فعله، كنت أغسل أذنيه. أذكر مقولة سمعتها من إحدى السيدات: "لا تُكلم أبناءك كثيراً عن الله، لكن بالأحرى كلم الله عن أبنائك". يا لها من عبارة حقيقية! وخاصة في وقت متأخر عندما أدركت مدى قوة الصلاة. أدركت أيضاً أنه يمكنني إحداث المزيد من التأثير في حياته بسلوكي واتجاهات قلبي، والتي تعكس النعمة الإلهية وهذه تكون شهادة حية.

في ذلك الوقت، كان هناك تحضير لليلة كرازة عالمية، تهدف للكرازة حول العالم عبر المحطات الفضائية، وتعرض العظات على شاشات عرض كبيرة. جهزت كنيستي، مثل كنائس أخرى كثيرة، هذا اليوم بالصلاة والمواد المطلوبة لانطلاق وانتشار هذا اليوم. بدأ تكوين لجنة استشارية، واشتركت فيها وأخذنا ندعو أكبر عدد من الناس للحضور وللاستماع للمتكلم المعروف "بيللي جراهام". أعلّنْ "بيللي":

"يسوع المسيح هو الحل الوحيد لاحتياجات هذا العالم". استجاب "ستيفان" لدعوتنا له بالحضور في اليوم الثالث، وكان هذا بسبب الفضول. وعظ "بيللي جراهام" ذلك المساء عن أصل الخطية والخير والشر بالإشارة إلى سفر التكوين. كانت رسالته واضحة وبسيطة. ذهب "إيمانويل"، أحد شباب الكنيسة، لــ "ستيفان" في تلك الليلة بعد الاجتماع. وببساطة سأله قائلاً:

- ما رأيك في العظة؟

قال بصراحة:

- الرب صالح للكل ماعدا لي ولآدم وحواء.

اكتشف "إيمانويل" في "ستيفان" شاباً مُشوشاً وسلبياً ومقتنعاً أن الدين هو للآخرين وليس له. لكن "ستيفان" قبل أن يحضر الاجتماع ويستمع للعظة. شرح له "إيمانويل" أن الله يريد أن يُعلن عن نفسه للبشر، وأنه من المهم أن يُدرك أن الخطية دائماً موجودة وأن الحل الوحيد لها هو يسوع المسيح. وأنه يجب أن يبدأ بهذه الخطوة وبقية الخطوات تأتي بعد ذلك بصورة طبيعية. في وقت لاحق قال لي "إيمانويل" انطباعه: "ستيفان كان مثل طفل صغير، لا يُريد السباحة، يقف على

حافة الماء ويلمسه بأصابع قدميه ويراقب الآخرين يسبحون ويقول لنفسه: هذا رائع ومناسب للآخرين ولكن ليس لي. الله لا يناسبني!".

على الرغم من ذلك، كان يذهب معي "ستيفان" من حين لآخر لحضور الكنيسة. كان يشعر بالسرور لرؤية شباب كثيرين مثله. كان أصدقاء "ستيفان" يأتون إلى البيت لتمضية الوقت مع "أنطوني"، وكنت أُسَرّ لرؤية "ستيفان" مُحاطاً بالشباب المسيحي. كنا ندعو الشباب للبيت وكنا ننظم حفلات شواء في الحديقة. وكذلك كان الشباب يدعون "ستيفان" و"أنطوني" لبيوتهم. كنت أشعر بالامتنان الحقيقي لشعب كنيستي ممن أظهروا روح الإخوة الحقيقية لإبني. كان "ستيفان" يحضر الاجتماعات أحياناً، كان يشترك معهم بشكل تدريجي، وأخذ يلاحظ أسلوب حياة مختلفة تماماً عن التي عاشها طوال هذه السنوات الماضية. وكان أحياناً يستمع لاختبارات أشخاص كانوا في الماضي مُدمنين. كانت مثل هذه القصص تُؤثر فيه بشكل قوي، لكنه كان يظن أن تعلقهم بالله يتناسب معهم، أما بالنسبة له وفي حالته فهو يستطيع أن يفعل ذلك بقوته الشخصية.

كانت تعليقاته تصدمني، لكنها قادتني لفكرة تشجعني الآن عندما أصلي للشباب وتقوي إيماني. وهي أنه عندما أنظر بمقاييس بشرية للأشخاص الذين أُصلِّي لهم، لن أستطع الإيمان بأنه في يوم ما سيمكنهم قبول المعونة من يد الله، لكن من الجهة الأخرى، إذا نظرت فقط إلى الله، سيكون لديَّ الإيمان بأن الله الكُلِّي القدرة والقوة هو وحده القادر أن يغير حياة هؤلاء الناس. إنه الله الذي يُمكنه أن يُقربنا إليه، ولسنا نحن من نستطيع الوصول إليه. لكن هذا لا يلغي حقيقة أنه عندما يتدخل الله ويقترب إلى قلب الإنسان، لابد للإنسان أن يستقبل الله ويفتح قلبه ويفهم ويقبل رسالته. استعادته للحياة الأُسرية والحياة الاجتماعية تركت في نفسه تأثيراً جيداً. بدأ يستعيد قدرته على التذوق والاستمتاع بالأمور البسيطة اليومية. عادت لديه الرغبة أيضاً في مُمارسة الرياضة. كان يلعب كرة التنس لفترات طويلة مع أخيه، وكانت الرحلات التي يقوم بها بالدراجة تُسبب له الكثير من البهجة. كنا نرقص سوياً وكان سعيداً لتمكنه من تحدي زوج أمه.

قال فجأة وهو ينظر متهرباً من شباك المطبخ:

- كنت أتمنى أن يكون لي أب يشجعني على الاستمرار في لعب التنس.

شعرت بثقل هذه الكلمات التي تحمل الكثير من إحساس المرارة. كان يتأمل بحزن في ماضيه. فقد كان يلعب التنس أثناء فترات المراهقة، كان يُحب كل الرياضات التي لها علاقة بالكرة، لكن بشكل خاص التنس. كنت أدفع له ثمن دروس تعلُّم التنس، ولكن ظروف الحياة لم تتح لي الاستمرار في هذا.

تنهدت قائلة:

- أفهم ما تشعر به.

أخذت أفكر في حزنه بينما كنت أغسل الأطباق. بلا شك، كانت هذه الكلمات تخفي أكثر من مجرد شعور بالأسف والإحباط لأب لم يكن أبداً موجوداً. ربما كانت تخفي مشاعر الاستياء: "لو لم يتركنا أبي هل كنت سأقع في شرك المخدرات؟". كان من الطبيعي أن يُفكر في مثل هذه الأسئلة. تركت الأطباق التي لم أكن قد انتهيت من غسلها.

- أتريد فنجاناً من القهوة؟

ودون أن أنتظر الإجابة، وضعت الماء في الغلاية. ثم بعد قليل قلت:

- أتعرف، هناك الكثير من القصص عن أشخاص فقدوا أحد الأبوين أو كلاهما، وللأسف فإن عددهم يزداد هذه الأيام.

جلس "ستيفان" وأخذت أعد القهوة، بينما كنت أتأمل في كلمات تعزية يمكنني قولها له.

- قد يبدو الله بعيداً جداً ولا يمكن الوصول إليه، لكن في نفس الوقت، هو قريب جداً، ويمكن الوصول إليه، ويمكننا أن ندعوه أبانا. أتعرف، المسيحيون في بعض الدول الأفريقية يدعونه: "بابا".

إلهنا يمكن أن ندعوه أبانا بسبب عمل يسوع المسيح. أعرف جيداً مدى صحة هذه الكلمات لأنني أختبرتها، وكنت مُدركة تماماً بجبني وغبائي. كيف يمكنه إدراك حقيقة طبيعة الله، وأن مشاكلنا ليست كبيرة جداً بالنسبة له أو صغيرة جداً عن أن يهتم بها؟ فقلب الآب المحب مليء بالمحبة، وهو دائماً موجود معنا ودائماً أمين لنا! وهذا الأب الحنون يرى كل ابن من أبنائه فريداً وثميناً في عينيه! وهو يتوق للتواصل مع كل ابن من أبنائه بشكل شخصي وقريب! نعم،

كيف يمكنه استيعاب هذا الامتياز دون أن يعلنه له الآب السماوي ويكشفه لقلبه؟ بالنسبة لابني، كانت هذه مجرد كلمات، حاولت دون جدوى تغليفها ببعض إشارات المحبة المُشبعة بالتفهم، لكن صورتي التي حاولت رسمها له لم ترقَه. فالفهم والإيمان لحالة التبني وموقفنا كأبناء وورثة لله "لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ. إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ:«يَا أَبَا الآبُ». اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ" (رومية٨: ١٤-١٧). تصبح مُمكنة فقط لهؤلاء المؤمنين بيسوع المسيح.

طلبت من الله حكمة في كلماتي وأفعالي. وكان هذا طريقاً طويلاً من التعلم ينتشر فوقه الكثير من الأشواك والورود، ويتطلب خضوعي لله الكلِّي السُلطان. توصلت أيضاً إلى أن كلمات النصيحة والتشجيع، التي تأتي من شخص خارج الأسرة، مثل أحد الأصدقاء تكون لها تأثير أكبر من الكلمات التي قد ينطق بها الوالدان.

كان "إريك" صديقاً قريباً لـــ "أنطوني"، وكان قد مر أيضاً في وقت من حياته تحت لعنة المخدرات. ومن عدة سنوات حرره الله وأطلقه من هذه العبودية. ومنذ ذلك الوقت، كرس "إريك" حياته لخدمة الرب هو وزوجته. وكان "إريك" نقطة تحوّل بالنسبة لـــ "ستيفان". فعلى هامش جدوله المزدحم، كان يُعطي "ستيفان" الكثير من الاهتمام، كان يدعوه لمنزله أو للتنزه معاً. كانت شهادة "إريك" وقصة حياته، لها تأثير كبير على "ستيفان" وقد لمست قلبه بشكل عميق. وفي أحد الأيام، وأثناء فترة طويلة من التنزه وسط الغابات أخذ "إريك" يُكلِّم "ستيفان" عن محبة الله، هزت مشاعره المُرهفة وحساسيته أكثر مما سمعه. وأخذ يسمع بانتباه، شعر في كلامه بأمر ما مُميز، وبدأ يشعر بالرغبة في الحصول عليه، لكنه لم يكن قادراً على استقباله. وعلى أطراف الغابة وتحت أشعة شمس المغيب اتجه كلاهما للسيارة. حشر "ستيفان" ريشة بيضاء لأوزة قد وجدها أثناء تجوله في الغابة، بين الكرسي الخلفي ومسند الكرسي، وذلك دون أن يُلاحظ "إريك". وعندما رآها عن طريق المرآة لم يقل شيئاً، لكنه ابتسم. قال له "ستيفان":

- في كل مرة تنظر إلى هذه الريشة، صلي من أجلي يا "إريك".

هذه الطلبة لمست قلب "ستيفان" بشدة. قال لنا فيما بعد أنه التقط قلماً وكتب ميعاد هذه اللحظة الهامة، حتى يظل يذكرها وبالطبع بدأ يصلي للآب لأجل "ستيفان".

كان هذا الربيع مليئاً بالنشاط بالنسبة لـــ "ستيفان"، أصبح الآن مشغولاً جداً ولا يمكن مقارنة أيامه بتلك الأيام التي كان يسودها الكسل والخمول. بالإضافة إلى ذلك، لاحت في الأفق رحلتان قصيرتان متعاقبتان لنورماندي وبروفنس. كانتا رحلتين عائليتين لاكتشاف منطقتين جديدتين ولتعزيز الروابط الأسرية.

في بداية الصيف، قالت لي "جنفياف" زوجة الراعي، إن أحد المرنمين يبحث عن شاب يرافقه في جولاته الكرازية الغنائية. وكان دوره هو أن يجهز ويجمع المعدات ويدير الإضاءة والصوت أثناء العروض الغنائية. وسألتني ما إذا كان "ستيفان" متاحاً لهذه المهمة.

اتصلت بهذا المرنم وشرحت له بكلمات بسيطة حالة "ستيفان".

- أعتقد أنك تبحث عن شاب مؤمن لهذا العمل. و"ستيفان" لم يحصل بعد على الخلاص.

- قد يكون هذا أفضل، لكن من يعلم! ربما تكون هذه الرحلة وسيلة له لسماع رسالة الإنجيل ورؤيته لتحركات الله في الأماكن التي نذهب إليها.

إجابته كانت رائعة بالنسبة لي ومنطقية. فهناك يد أخوية تمتد لابني. فكرة مُرافقة مغنٍ في رحلته الغنائية سببت لـ "ستيفان" الكثير من السعادة.

- نعم، أمر رائع!

لم يكن يعرف ما هو نوع الموسيقى، ولم يكن يعرف نوع الأغاني، لكن لم يكن هذا مُهماً بالنسبة له!

- إذاً هي رحلة لجنوب فرنسا، رائع!

كان "ستيفان" في صغره يحلم أن يكون موسيقياً، وكانت أحلامه كلها تدور حول هذا الأمر. إلى جانب ذلك، كان هناك شيء آخر في هذه الرحلة والتي تحقق أمراً ما في اللاوعي لديه، وهو حقيقة احتياجه للإحساس بأنه نافع ومُفيد. كان يشعر بالقيمة عندما كان يعمل مع *أغابي*، ومنذ ذلك الحين أصبح يتعافى بشكل تدريجي من شعوره بصغر

النفس وبدأ يستعيد كرامته. كان أمراً رائعاً أن أرى كل هذه التحركات الإلهية. كان لديَّ إيمان أن الله يعمل في قلب ابني. أثناء هذه الجولة، أخذ يستمع "ستيفان" لله بشكل طبيعي كل يوم. والأكثر من ذلك، ولأن العائلات المسيحية كانت تستضيف المرنم و "ستيفان"، استطاع "ستيفان" أن يستمتع بالضيافة المسيحية. ولينتقلا من مكان لآخر، كانا يسافران معاً لمسافات طويلة داخل الميني باص، وكان هذا يتيح لهما الفرصة للحديث المتبادل عن حياتهما. أعتقد أنه خلال هذه الرحلة حوصر "ستيفان" أكثر من مرة. والآن عندما يسمع "ستيفان" لألبومات ذلك المرنم، تحمل الترانيم معها الكثير من الذكريات لهذه المرحلة الهامة من حياته. في نهاية إحدى أحاديثهما معاً، بدت إحدى عبارات المرنم كسؤال مُلِّح وظل محفوراً لفترة طويلة داخل ذاكرته: "ستيفان، لماذا تتلاعب بحياتك؟!".

حتى بعد كل هذه الخبرات، وبعد ستة أشهر من وجوده معنا في البيت، كان من الصعب علينا معرفة ما إذا كان بعيداً عن الخطر أم لا. عندما رأيناه يخرج من البيت للعمل، بدأنا نميل للقول: "هذه المرة أصبح يفهم، فقد عاش كثيراً من

فترات الإنسحاب وكثيراً من الانتكاسات ويعرف جيداً مدى ضرر المخدرات، والآن يعرف بالتأكيد مدى تكلفة السقوط مرة أخرى في المخدرات". وحتى يتعافى كلية، فضلنا أن ندعه يعيش في جو من الثقة بدلاً من الشك. وإذا طرحنا عليه السؤال ماذا سيكون رد فعله إذا تقابل مرة أخرى مع المخدرات، لما خطر علينا أبداً فكرة أنه سيتناولها مرة أخرى. رغم أنه لا يمكن لمدمن مخدرات أن يقسم بأنه لن يستخدم المخدرات مرة أخرى. إلا أننا شعرنا بالأمان والحماسة للثقة فيه وفي الحياة باستقلال عنا.

في إحدى الليالي بعد العشاء، أحضر زوجي عبوة ورقية وأعطاها لابني. وبعينين متسعتين، أخذ ينظر للعبوة في ذهول. كان واضحاً تماماً، أنه لم يفهم ما يرمي إليه زوجي. هذه العبوة الصغيرة كانت معروفة له جيداً. هل تحتوى فعلاً على *البودرة*، لكن كان يعرف جيداً إذا كانت تأتي من طرفنا، فمن المستحيل أن تكون كذلك. شعر بعدم الراحة، وبدأت تحمرّ وجنتاه.

قال زوجي له بجدية:

– افتحها.

أخذ ينظر إلينا في حيرة وتردد لفترة قبل أن يفتح العبوة مستشعراً أن هناك فخاً. كنت أعرف هذه المزحة وكان صعباً عليَّ كتمان رغبتي في الضحك.

كرر زوجي بإصرار قائلاً:

- افتحها.

فتحها بدافع الفضول وانفجر في الضحك. لم يكن مُغفلاً، أدرك فوراً أن البودرة الموجودة لم تكن هيروين، بل هي شيء آخر. ثم إن الكمية كانت كبيرة مما جعلت الأمر يبدو غيـــر معقولٍ. كانت بعضاً من الدقيق! كان زوجي يُريد أن يعرف رد فعله.

- حسناً، بافتراض أن هذا هيروين، ماذا ستفعل؟

- م م م ...

- لديك واحد من خيارين، أما أن تستنشقه أو أن ترميه، أليس كذلك؟

- سأرميه.

- أين؟

- في الحمام.

- إذاً افعل ذلك.

- أجل... لكن هذا يمثل ثروة، هل ألقى بهذه الثروة في الحمام!

- نعم، أظن ذلك. بالطبع قد تخطر لك فكرة بيعه.

قام "ستيفان"، وكان لا يزال يضحك، وأخذ العبوة معه بجدية وكأنها ليست تمثيلية ساخرة. وقال بفخر وهو يضغط على زر المرحاض بعد أن ألقى بالعبوة في الحمام:

- انتهت المسرحية.

كان زوجي يريد أن يذهب بفكرته إلى النهاية، حتى ولو كانت فكرته مجرد فكرة خيالية.

كان هناك شيء آخر قد تعلمته، أن الامتناع عن المخدرات ليس هو الامتناع عن مشاعر الحنين للمخدرات، بل أيضاً مشاعر الحنين لطقوس تناول المخدرات، فهذه الحركات التي تتكرر عدة مرات، فتح العبوة برفق، ثم عمل خطاً رفيعاً ومستقيماً بمساعدة سكينة أو أي قطعة من الورق المقوى، ثم البدء باستنشاقه ببطء. كل هذه المراحل من عملية التحضير تجعل منها عادة مُحببة لمُدمن المخدرات، سلسلة من المشاهد تحدث في جو من السرية مع كل المخاطر التي تتضمنها. فالأمر عبارة عن عـــادة إدمانية لا تتعلق فقط بالمُنتج نفسه،

بل أيضاً بالطقوس التي تصاحب تناوله.

في وقت مُبكر من هذا الصيف، ذهب "أنطوني" لساحل العاج لعدة شهور، مما جعل "ستيفان" غير راغبٍ في مد إقامته معنا. على أية حال، وبعد هذه المدة الطويلة، بدأ يشعر بأنه جاهز لاستكمال رحلته بمفرده وفي الاتجاه السليم. انتهت علاقته بـــ "ميكي" بشكل مؤكد، خاصة بعد انتكاسته الأخيرة. فنكبة انتكاسته التي لا تنتهي قد أحرقت ولطخت علاقتهما. ولم يرد أي منهما العودة للآخر والعمل على لحم الشروخ التي بينهما، فقد ابتعد طريق كل منهما عن الآخر. كان على "ستيفان" أن يبدأ من نقطة الصفر، وفي مكان غير معروف حيث لا يذكره شيء فيه بارتباطه القديم بالمخدرات، حيث لا يوجد علامات ولا زوايا ولا أشخاص يمكنهم أن يجذبوه مرة أخرى إليهم ولذلك أراد تجنب الجميع. وبسبب عدم قدرته على تغيير قارته، ولا على تغيير بلاده، قرر أن يُغير مكان تواجده في سويسرا. وإختار مدينة جنيف.

مبدئياً، كان عليه أن يجد وظيفة. ومن بعيد، لم يكن الأمر سهلاً. لكنه قام بمحاولة إرسال عرض تحريضي لأحد

الهيئات التي تقوم بأحد الأعمال التي يفضلها. لم نتوقع رداً إيجابياً لكن زوجي كان يشعر بأهمية أن يعود "ستيفان" لسوق العمل. كانت الإجابة سلبية، مما تسبب إلى حد ما في إحباطه.

فقرر البحث بنفسه في الأماكن التي حوله. وهذا وضعه مرة أخرى على المسار الطبيعي، وهو البحث أولاً على مكان يسكن فيه قبل البحث عن وظيفة. وكان من الواضح أنه يحتاج لتدعيمنا المعنوي والمادي أيضاً. كان سعيداً لتمكني من مرافقته في عملية البحث عن منزل للإقامة، خاصة أنه لا يملك المال، وكان عليَّ أنا وزوجي تحمل الإيجار.

قبل مغادرته لمنزلنا بوقت قصير، قضى زوجي معه إحدى الأمسيات، وتكلم معه بشكل صارم محاولاً أن يضع أمامه واقع الحياة الجديدة التي كانت تنتظره. المزيد من الحماية! لن نكون هناك معه لنحميه من العالم الخارجي. كانت روحه تبكي. وبدأت بعض الدموع تسيل على وجنتيه، وبدا عليه الضيق حتى لاحظ زوج أمه ذلك، وقال له في مُحاولة لتهدئة عواطفه:

- أتعرف، أنا لا أبكي.

فبالرغم من أنه كان جاهزاً، إلا أنه كان خائفاً. كان لابد أن يُلقَى في الماء، ولكن هذه المرة دون عوامات.

رحيله كان يقلقني وما كنت أخشاه بشكل كبير هو وجوده بمفرده. فالوحدة هي العدو الأول. سيكون هذا بشكل مبدئي، حيث سيكون تحت الإشراف وكان "ستيفان" يدرك هذا. كنت أعرف جنيف بشكل نسبي، لكن لم يكن لديَّ معارف أو علاقات فيها. بدأت بالبحث عن عناوين بعض الكنائس المُتاحة، وبعض الأشخاص الذين يُمكنني الاتصال بهم. وأثناء هذه العملية من البحث، وضع نهاية لعمله بمكتب *أغابي*.

- ما هو أكثر شيء أعجبك في عملك؟

- لا أعرف بالتحديد، لكن كان هناك شيء أعجبني كثيراً وهو إحدى اللوحات المُعلقة!

- أي لوحة؟

- هي لوحة لشاطيء عليه آثار أقدام، ومكتوب عليه كلام يشرح الصورة. لا أستطيع شرح ذلك لكنه كان يلمس قلبي بشكل كبير.

أخذت أتذكر بسرعة ماذا كان هذا. كان شِعراً (مأخوذاً من كتاب "خطوات على الرمال" للمؤلفة "مارجريت فيش باك باورز") وهو شِعر أقتبس بأشكال مختلف، وتم إصداره على كروت وعلى صور حائط. وهنا أُعيد صياغته كما رويته لابني:

حلَّمتُ :

أنني كُنت أتمشى على الشاطيء بجوار الرب

وعلى الرمال وجدتُ آثار أقدام لشخصين:

خطواتي وخطوات الرب

توقفتُ لأنظر خلفي

رأيتُ كل آثار الأقدام التي تمتد عبر الطريق

لكني اندهشتُ لأرى أن بعض المناطق،

كانت فيها آثار خطوات لفرد واحد.

استعدت أحداث حياتي

واكتشفت أن هذه المناطق التي تحتوي على آثار أقدام

لشخص واحد

تمثل الأوقات والأيام الأكثر ظُلمَة

في حياتي.

فتجرأتُ وتكلمتُ مع الرب وقلت :

" لماذا تركتني وحيدة

في أصعب لحظات حياتي؟

في الأيام التي كُنت أمر فيها بالاحتياج الشديد

لمحضرك ووجودك بجواري؟ "

أجابني قائلاً :

" هذه الأيام التي لم تَري فيها

آثار أقدام على الرمال،

كنت أنا مَنْ أحملك على ذراعيَّ ".

هذه الصورة، وهذه الكلمات أثرت كثيراً في ابني، وسبَّبت لي أيضاً كثير من البهجة. فكم من المرات اختبرت فيها ذراع الله تحملني وقت الضيقات.

الفصل الثالث عشر

العودة إلى البداية

ذهبنا بالسيارة في أحد أيام الجمع المشمسة من شهر يوليو إلى سويسرا. كان "ستيفان" مُتحمساً، وبثقة وضعت هذه المرحلة الجديدة بين يدي الرب. أمضينا الليلة في منزل أختي بلوزان، وباكراً في اليوم التالي بدأنا رحلة الستين ميلاً للذهاب لجنيف. اشترينا الجرائد وقضينا اليوم نطوف بالمدينة، نحمل في يد إعلانات تحت عنوان "شقة للإيجار"، وخريطة المدينة في اليد الأخرى. كان هناك العديد من الشقق الصغيرة المُتاحة، لكن الوصول لشقة مناسبة وبسعر مناسب كان يحتاج وقتاً طويلاً. قال "ستيفان" عندما رأى أحد الشقق القبيحة التي ذكرته بشقته القديمة الكئيبة:

– هذه الشقة توحي بالاكتئاب.

اتفقت معه في هذا الرأي. كان من الضروري أن يسكن في شقة مُريحة خاصة أنه سيعيش بمفرده. بعد عدة زيارات، استقر رأي "ستيفان" على أحد الشقق النظيفة والمضيئة والعامرة من كل وسائل الراحة. وتمت كل

الاتفاقيات الورقية الخاصة بانتقاله لهذا المكان الجديد. ذهبنا لأحد المحال الكبيرة، قمنا بشراء الاحتياجات الضرورية فقط: سرير ومفروشات، منضدة وكرسيين، أطباق، تليفون وهو وسيلة الاتصال الأكثر احتياجاً، وتليفزيوناً للتسلية. ثم ذهب لإحضار بعض متعلقاته الخاصة، والتي كان قد وضعها لدى أحد أصدقاء "ميكي": نظام هاي فاي Hi-Fi، وبعض شرائط الفيديو والموسيقى. وبهذا أصبح له مكانٌ يُمكنه أن يبدأ فيه بداية جديدة. قمت بدفع مبلغ لتغطية تكاليف المكان، ووضعت له مبلغاً من المال يؤمن له احتياجاته الأولية إلى أن يتمكن من تدبر حاله. قال أنه سيُسدد لي هذا المبلغ بعد أن يجد عملاً، وذلك لأنه كان مُتيقناً من أنه سيجد عملاً بسرعة. لم أخدع نفسي كثيراً بالوهم، إلا أنه كان من الضروري أن يجد عملاً. قلت له إنني أعتمد عليه في ذلك، حتى أضع عليه بعض الإحساس بالمسئولية. كان لنا امتياز تمضية أول يوم أحد في جنيف، مع اثنين من أصدقائنا من الكنيسة، واللذين وجدناهما في هذه المنطقة، بسبب مجيئهما لعمل بعض الدراسات الرعوية. كان "ستيفان" يعرفهما جيداً. ذهبنا أولاً في الصباح لإحدى

الكنائس الإنجيلية في جنيف. وبعد الكنيسة، حاولت أن أقدم "ستيفان" لعدد من أعضاء الكنيسة، حتى أتأكد أنه لن يكون وحيداً بعد رحيلي. ثم قضينا فترة بعد الظهر بجوار البحيرة مع أصدقائنا "جون ميشيل" و "آن". تذوقنا معاً فرح الصيف خلال هذه الصداقة الجميلة. تنزهنا وسبحنا تحت السماء المُبهجة وأشعة الشمس اللطيفة. أخذ "جون ميشيل" يتحدث بلطف مع "ستيفان" عن قوة الإنجيل المُغيِّرة. كان يستمع إليه "ستيفان" بصعوبة، لكن كان دائماً يحاول الدفاع عن نفسه وتبرير نفسه بمبررات واهنة. إلا أن الله كان يفحص قلبه مرة أخرى.

وبين الأسماء التي توصلت إليها، اخترت الاتصال بالقس "جوال"، الذي كان راعياً للكنيسة المعمدانية بجنيف، والذي رشحه لي راعي كنيستي بشدة. شرحت له بسرعة مشكلة إبني، وعبَّرت له عن رغبتي بأن يهتم به إذا ظهر في كنيسته.

مرة أخرى، تركت ابني لأرجع إلى بيتي، بعد أن تركت معه بعض الأشخاص الذين يمكنه التواصل معهم.

- هاك عنوانين لكنيستين وأرقام تليفونات الراعي الذي ذكرته لك. "ستيفان"، أنت الآن وحيد في هذه المدينة بلا أصدقاء، ولا يوجد داعٍ لأن تعيش بمفردك في انعزالية. ولذلك، فمن الضروري أن تتعرف على أشخاص يُمكنك اللجوء إليهم عندما تشعر بالوحدة الشديدة. ولأنني لا أعرف الكثير من الناس هنا، هذه هي بعض أرقام تليفونات لبعض المسيحيين الذين يُمكنني ترشيحهم لك. خذ أيضاً كتاباً مقدساً. حجمه صغير، يمكنك أخذه معك لأي مكان تذهب إليه.

تركته واثقة من كل شيء، إلا من مدى ضعف الوحدة الجسدية والنفسية. واستودعته بقوة للعناية الإلهية، ولحماية الله القادرة أن تحميه من كل أنواع التجارب والإغراءات.

وبسرعة بدأ "ستيفان" بحثه عن عمل. ولحسن الحظ، ملأ البحث في مكاتب التوظيف وقت فراغه. كنت أتصل به بشكل منتظم لأعرف أخباره ولأتحدث معه. وكان يحكي لي بشكل تلقائي خطته اليومية. وجد بسرعة وظيفة مؤقته كحمَّال في أحد المصانع، كان عملاً صعباً يتطلب مجهوداً جسدياً، لكن على الأقل كان التعب يدفعه للنوم مبكراً. أجازة نهاية الأسبوع الأولى، قضاها في مُشاهدة الألعاب النارية،

التي كانت تُقام في جنيف في احتفالها القومي. وجدته هادئاً جداً بشكل كبير. اتصلت به أختي، ودعته لتمضية عطلات نهاية الأسبوع مع أسرتها كلما أراد ذلك. لم يتأخر في قبول الدعوة، فصحبة خالته وأولادها كانت تُغير من جو يومه الكئيب. وكذلك دعاه القس "جوال" وزوجته لبيتهما.

ذهب "ستيفان" مرة أو مرتين، لحضور اجتماع التسبيح واجتماع الشباب في الكنيستين اللتين اقترحتهما له. شعرت بخوفه وخجله في هذه المرحلة. كنت أتمنى أن يتجه إليه شاب أو إثنان لتشجيعه على الخطوة الأولى في التعرف إليه. صليت أن يُقيم الرب بعض الشباب الحساسين للإحاطة به. ودون أن أعرف، كان أعضاء الكنيسة المعمدانية يصلون لـ "ستيفان" أيضاً.

بعد مرور شهر، جاء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معنا. كان تحمله لعناء السفر في القطار والعودة بعد يومين تأكيداً على رغبته في التواجد معنا. موقفه ونظراته لم تُوحي لي بأي شيء يُثير شكوكي، لكن على الرغم من ذلك، لم أكن قادرة على الثقة الكاملة بأن كل شيء يسير على ما يرام. كنت خائفة من إدراكي لوحدته، فسألته:

– هل يدعوك بعض أفراد الكنيسة؟

– لا!

– كيف لا! ألم يدعوك أحدهم؟

أندهشت كثيراً، فأنا أعرف جيداً جماعة المسيحية. وكالعادة، تمنيت أنه يقول لي الصدق. بعد عودته لبيته، ترددت في الاتصال "بجوال" للتعبير عن تعجبي واندهاشي له. لكنه وضعني أمام الحقيقة المؤسفة وقال لي:

– لقد دُعي "ستيفان" عدة مرات من قِبَل أفراد الكنيسة، لكنه كان يرفض الدعوة مُفضلاً أن يستمر وحيداً.

شعرت بالغضب الشديد من "ستيفان" ومن نفسي أيضاً. كيف أصبح صعباً عليَّ إدراك الكذب في كلمات "ستيفان"، لماذا لم أستطع تمييز ما إذا كان يقول الصدق أم يكذب. "جوال" مثل كثيرين ممن لا يعرفون الكثير عن هذا الوباء، لا يُمكنه إدراك ورؤية كل أبعاد الموقف. فشعرت بالخجل الشديد والتشويش وأخذت أعتذر لـــ "جوال".

أثناء حديثي مع "مونيكا"، عرفت أن اختي اكتشفت أن "ستيفان" أصبح إلى حد ما غريب الأطوار، وأنه أكثر ابتعاداً عنها وبدأت تشك في الأمر. عاد "ستيفان" في أجازة نهاية

الأسبوع التالية لزيارتنا. ونتيجة لاقتراح زوجي، قررنا التصرف وكأن شيئاً لم يحدث، ولم نسأله أي سؤال. بالنسبة لي كنت أشعر بالانهيار، وكانت لديَّ العديد من التساؤلات. إما "ستيفان"، فقد اندهش بشكل واضح لأننا لم نزعجه كثيراً بأسئلتنا. بدأنا نشعر بأنه يسلك بشكل غير حقيقي، فقد كان يتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. أخذنا نتحدث معه بشكل طبيعي أثناء تناولنا القهوة بعد الغداء، لكني كنت في غاية الحزن. كنت متوترة وكنت أتجنب النظر إليه وكان من الصعب عليَّ السكوت. سألني في دهشة:

– حسناً! هل انتهيت من الأكل؟

اقنعت نفسي بالإجابة وهززت كتفي وقلت له:

– نعم.

بعد الظهر لم أستطع الاستمرار في لعبة التكتم هذه، وقلت له:

– نعرف أنك تتناول المخدرات!

ولأول مرة لم يحاول إخفاء الأمر. في العادة كان ينكر الأمر بشدة، وينفعل بعنف عندما كان يرى أننا نشك فيه. يا له من تغيير في الاتجاه. فلم يعد يكذب، وكذلك اعترف

بهدوء دون أن يحاول الدفاع عن نفسه أو تبرير موقفه. وقال بنبرة صوت جعلتنا نتأكد من صحة الأمر:

- كيف عرفتم؟

رغم أنه كان يقول الحقيقة، إلا أنني لم أستطع تصديق الأمر! لم أفهم أي شيء! في الحقيقة، كنت أؤمن أنه يقول الحقيقة (لكنني لم أستطع الاعتراف بها!) ورفضت الإيمان بأنه قد انتكس. أكد لنا أنه لم يتناول سوى القليل منه، وأنه لن يكون هناك توابع لذلك، وأنه سيستمر في عدم تناول المخدرات. وبالطبع كان كلامه ونقاشه غير مُقنع على الإطلاق. فقد سمعت من فمه كل هذه الأقاويل من قبل عدة مرات، ولن أنخدع بها مرة أخرى. إلا أن سلوكه غير المكترث كان يُريد به تغطية الحقائق عنا.

اتصلت به بعد رجوعه لمنزله بيومين. ميزت من صوته أنه كان يحتضر. نصحته بالاتصال بـــ "جوال"، الذي أصبح يعرفه جيداً الآن. هذه الأيام جعلت كل مظاهر التدمير تظهر مرة أخرى بكل هولها. انتكس "ستيفان" مرة أخرى. وقراره الصغير بالعودة للمخدرات، دفعه لقاع الهوة بسرعة، وبأكثر عُنفاً من كل المرات السابقة. كانت انتكاسة شديدة. مكالمته

التليفونية لم تكن على غرار اللعبة التي كان يلعبها معنا في زيارته الأخيرة لنا، كان ذلك من أربعة أيام فقط. "يا إلهي! لا! لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً! لماذا انتكاسة أخرى، لا أفهم ما يحدث؟... ارتجّ كياني، وصرخت دموعي لله في تذمر وشكوى. وتوسلت إليه مثل كاتب المزامير: "إِلَى مَتَى يَا رَبُّ تَنْسَانِي كُلَّ النِّسْيَانِ؟ إِلَى مَتَى تَحْجُبُ وَجْهَكَ عَنِّي؟ إِلَى مَتَى أَجْعَلُ هُمُومًا فِي نَفْسِي وَحُزْنًا فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ؟ إِلَى مَتَى يَرْتَفِعُ عَدُوِّي عَلَيَّ؟" ؛ "يَا رَبُّ، اسْمَعْ صَلاَتِي، وَأَصْغِ إِلَى تَضَرُّعَاتِي" (مز١٣: ١-٢؛ ١٤٣:١). (كان هذا شديداً عليَّ! لماذا لم يتدخل الله؟ إذاً لماذا؟ أعرف أن أبي السماوي لم يتركني، لكنني لا أفهم لماذا يسمح له بالانتكاسة. كان صعباً عليَّ قبول ذلك. كنت واثقة من أن هذه البداية الجديدة في جنيف ستكون جيدة. لماذا لا ينتهي هذا الوباء؟.

لم أعرف ما يجب عليَّ القيام به. فقد عاد كل شيء للبداية. انخفضت كل معنوياتي. ولعنت المسافة التي تفصلنا عن بعضنا البعض. كيف يمكنني تعزيته بالتليفون؟ استمعت إليه، وتكلمت معه، لكنه لم يكن يحتاج لكلمات. فاقترحت عليه مرة أخرى أن يتصل بـــ "جوال". لم يجرؤ على ذلك

في البداية، لكن بسبب آلامه، انكسر كبرياؤه. أعطاه "جوال" كثيراً من الوقت والاهتمام بشكل مُتكرر وبكل العطف والحساسية، وكان يزوره بشكل منتظم. وفي أحد المرات عرض عليه المشي قليلاً، وكانت فرصة يريه فيها *حائط المصلحين* الموجود في أحد الحصون بجنيف. وحتى يحاول أن يخرجه من أفكاره المُظلمة، أخذ يشرح له ببساطة تاريخ الإصلاح. وحاول بما في وسعه مساعدته، لكنه أدرك كما أدركنا جميعاً، مدى عجزه عن ذلك وأن حالته الإدمانية أكبر من إمكانياته على التعامل معها. قال لي "جوال" فيما بعد: "ستيفان قال لي أمراً لا يُمكنني أن أنساه: يمكنك أن تقول لي كل ما يحلو لك، لكن عندما أحتاج للمخدرات لا يمكن لشيء أن يمنعني عنها!".

اتصل بي "أنطوني" من ساحل العاج، وحكى لي عن أخباره، وحكيت له عن أخبارنا. شعر بالارتباك وكان من الصعب عليه تصديق ما يحدث، كان له نفس رد الفعل الذي كان لي. فمع "سوزان" خطيبته و "فرنسوا" صديقهم المُقرَّب، كونوا مجموعة صغيرة، وكانوا يُصلُّون معاً في كل صباح قبل ذهابهم للعمل، كانوا يُصلُّون لـــ "ستيفان". كانت

الصلوات ترتفع للسماء لأجله من أفريقيا، مع جميع الأصدقاء هنا في فرنسا وسويسرا، ومع صلواتي ومع نعمة الله.

الفصل الرابع عشر

من الظلمة إلى النور

سأظل أذكر مساء يوم الأربعاء هذا ما حييت. كانت إحدى أمسيات صيف حار. وكنت جالسة مع زوجي نتحدث بشكل طبيعي عن "ستيفان" أثناء تناولنا العشاء في الشرفة. كان قلبي مُمتلئاً بالحزن. وكان أخر شعاع للشمس آخذاً في المغيب، خلف إحدى الهضاب، راسماً هالة أرجوانية في الأفق. كان الجو لطيفاً فوضعت معطفاً. ورن جرس الهاتف. ذهبت مُسرعة للرد، تحسباً أن تكون مكالمة من "ستيفان". وفي عمق اليأس الكلي الذي كنت أعيش فيه، سمعت صوتاً ضعيفاً لكن واضحاً ورناناً:

- *ماما، أريد أن أسير في طريقك.*

شعرت بفرح غير متناهٍ يغمرني. كلماته البسيطة أحيت أخر أمل كان لا يزال في قلبي. أسير في طريقكِ معناه طريق يسوع المسيح بالطبع. قلت له:

- كل شيء سيصبح على ما يرام الآن.

لم أجـــد أفضل من هذه الكلمات في هذه اللحظة. لم تكن

هذه هي لحظات للاستمتاع بهذا الفرح أكثر من ذلك، فقد كان لابد أن أبدأ في القيام بالأمور الأكثر إلحاحاً. كان "ستيفان" في قاع الهوة يصرخ طالباً المساعدة، وكان قد فقد كل أسلحته، لكن الله مد له يد المساعدة. قلت له:

- استقل أول قطار وتعال.

ذهب معي زوجي في الصباح التالي لمحطة القطار للبحث عنه. لم يجد "موريس" مكاناً لترك السيارة فظل منتظراً فيها. كان رصيف تلك المحطة يعرف جولاتي ورحلاتي، ويمكنه أن يعد المرات الكثيرة التي جئت فيها لأستقلّ القطار أو لأنتظر "ستيفان"! كم عدد المرات؟ أنا نفسي لا أذكرها! كنت أعرف موقع عربات القطار وخاصة العربة رقم ١٧ التي أصبحت أعرفها جيداً، ويمكنه كذلك تذكر مشاعري خلال كل هذه الرحلات. وعلى هذا الرصيف، كنت أمشي لأركب المترو. بعد وقت قصير استطعت تمييز المحرك البرتقالي اللون ذي الشكل العصري المُقبل من بعيد. بدأ قلبي يخفق من الفرح، وكنت سعيدة بالقرار الرائع الذي إتخذه إبني، وفي نفس الوقت كنت حزينة لأنه لا يزال يُعاني ويتألم. لم أرَ ابني في هذه الحالة من البؤس من قبل، كان منظره يُثير

الشفقة. كان في حالة مُزرية، نحيلاً شاحباً وكانت عيناه غائرتين تُحيط بهما هالات سوداء، وكان خداه مشفوطين وينتشر عليهما بقع حمراء. كان الناس يسبقونه في مشيته. وضعت ذراعي حول عنقه وقلت له ببساطة:

- تعال. كل شيء سيكون على ما يرام.

ألم يكن هو الابن الضال الذي عاد لبيته؟ كانت رحلة عودتنا بالسيارة للبيت رحلة صامتة. في داخل قلبي كنت أشكر الله، وطلبت منه المعونة والكلمات والتصرفات المناسبة لتشجيع وتعزية ابني بأفضل طريقة. فقد انتشله الله الآن من الجحيم، ليبني من جديد حياته المُدمَّرة. أنقذني الرب وسمع صلواتي.

اَللهُ لَنَا مَلْجَأٌ وَقُوَّةٌ.
عَوْنًا فِي الضِّيقَاتِ وُجِدَ شَدِيدًا.
لِذلِكَ لاَ نَخْشَى
وَلَوْ تَزَحْزَحَتِ الأَرْضُ،
وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ.
تَعِجُّ وَتَجِيشُ مِيَاهُهَا.
تَتَزَعْزَعُ الْجِبَالُ بِطُمُوِّهَا. (مز ٤٦: ١ – ٣)

في حياتنا التي يسودها القلق، والتي تهيج مياهها عندما تزأر العواصف، استطعت أن أتماثل مع هذا المزمور بقوة. والآن، بدأت أشعر بنهاية التجربة التي كنا نجتازها.

كانت تلك الليلة، والليلة التي تليها من أصعب الليالي التي مرت عليَّ في حياتي. فغياب الهيروين كان أكثر من قدرته على الاحتمال. كنت قد رأيت أعراض الانسحاب من قبل، لكن هذه المرة كانت أشدها ضراوة. احتملت هول تجربة عدم إمداد جسده بالهيروين مرة أخرى. أخذ يتقلب ويتلوى في فراشه. كان كل كيانه يهتز بعنف، وكان ألم عنيف يضرب جسده كله، أخذ يتحرك في كل الاتجاهات ويهتز بشكل متواصل. كانت أنفاسه سريعة وأخذ يلهث. كانت تصيبه تقلصات عنيفة، وكأن أحدهم يجلده بسياط مما يدفعه للصراخ بشدة. كان يضرب رأسه بالحائط، ويلعن قدره. كُنت بجواره في هذا الوقت الصعب. وكنت أعطيه أكبر كمية مُمكنة من المنومات، التي كنت أعرف مدى ضعف تأثيرها عليه. كنت أشعر بالعجز الشديد، وبعدم قدرتي على مساعدته لعبور هذه الفترة العصيبة: كان يحتاج لمعونة الله. ركعت بجوار فراشه، وطلبت من الله المساعدة. كنت أصلي

داخل قلبي وأقول: "يا رب! هدئ "ستيفان". أتوسل إليك، خفف عنه الألم، أنت ترى كيف يتألم".

- أنا حران.

كان يتذمر بشدة وينزع عنه الغطاء وكان يتصبب عرقاً. حاولت جاهدة أن ألطف عنه: كنت أغير الأغطية، وأفتح النوافذ، وأسكب عليه بعض الماء البارد، وأحياناً بعض اللبن البارد. إحساسه بالحرارة كان يتغير بسرعة من اتجاه لآخر. كان يشعر بالأسف على حاله، كان منحنياً على نفسه في وضع الجنين.

- أنا بردان.

الآن، أصبح يرتجف. فأغلقت كل النوافذ، وأخذت أدلك ظهره وألفه بالأغطية وصنعت له الشاي.

التوتر والتعب سبب لي الإرهاق الشديد. كانت ليلة طويلة لا نهاية لها. كان الأمر أصعب في الليل، كل شيء هادئ في الخارج والقمر مختفٍ والسماء مُظلمة بلا نجوم. شعرت أنني وحيدة في هذا العالم مع صراعي ضد الشر وأخذت أصارع حتى لا أنام. هذه المرة لم يطلب نقوداً لشراء الهيروين، ولـم يطلب أن يخرج وحده دون أن يعلم إلى أين

يذهب.

- ماما، صلّي من أجلي. لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك.

- نعم يا "ستيفان"، أنا أُصلّي بلا توقف. الله ليس بعيداً عن آلامك فهو يرى آلامك ومُعاناتك.

منعته الآلام اللاسعة من الهدوء ولو لثوان معدودة، حاول جاهداً أن يجد وضعاً مُريحاً للحصول على بعض الراحة. وللحظات كان يظن أنه قد وجده فينام، كنت أستغل لحظات نومه هذه لأنزل على ركبتي، وأضع رأسي فوق فراشه وأُصلّي. لكن الألم لم يكن يرحمه، وكان يظهر مجدداً ويوقظه. كانت الآلام غير المُحتملة تضربه حتى تعب تماماً.

- أنتِ تُصلّي لكن الله لا يسمع. فهو يُريدني أن أتألم، فهذا أمر طبيعي لأنني أتناول المخدرات. هو يُريد أن يُعاقبني.

اندهشت لهذا الكلام، فـ "ستيفان" كان يُعذّب نفسه.

- لا! الله لا يُعاقبك، صدقني. فهو لا يُريد أن يجعلك تتألم. نحن لا نفهم دائماً كيف يتحرك الله، لكنه معك وليس ضدك. وهو يتألم أيضاً معك. أؤكد لك أنه معنا الآن.

أخذت أُفكر في نفسي، أن هذه الآلام سوف يتبعها بركات من الله، لكن لم يحن الوقت لـــ "ستيفان" ليفهم هذا الكلام، ولم يكن هذا هو الوقت المناسب لمثل هذا الحديث.

بدأت الأمطار تنهمر مع أول إشراقة لنور الصباح. أخذت قطرات كبيرة تضرب زجاج النافذة، وكان أول شيء نسمعه بعد شروق الشمس هو صوت الجيران. بدأت حركة "ستيفان" تقل، ففترات الراحة بين نوبات الألم أخذت في الازدياد. وأخيراً، بدأ يعود إلى التنفس بشكل طبيعي، ووضع رأسه على الوسادة وأغمض عينيه وذهب في نوم عميق. انتهزت هذه الفرصة لأغوص في فراشي وأنام، لكني لم أنم سوى ربع ساعة.

وفي وهن شديد، أخذ "ستيفان" يتعافى ببطء، استغرق ذلك بضعة أيام. ومرة أخرى يقف على قدميه. منذ انتكاسته الأخيرة، أصبح الصراع ضد عدوه يأخذ أشكالاً عنيفة لا نُدرك أبعادها، إلا بعد أن يتعافي، عندئذ نبدأ في معرفة ما قد حدث بالفعل. عاد "ستيفان" للمخدرات بعد أسبوعين من وصوله لجنيف. ولم يقم فقط باستنشاق الهيروين، بل كان يأخذ حقناً بشكل مستمر. السرنجة، تلك الكلمة القبيحة، داخل

سياق المخدرات تجعلني أرتجف خوفاً. قال لنا إنه بدأ يعمل حتى لا يقلقنا، لكن في الحقيقة عمل لبضعة أيام إلى أن نجح في الوصول للمخدرات، وعندما وقع في فخها مرة أخرى، كانت تستحوذ على كل وقته. وكان يُريدنا أن نؤمن أن كل شيء يسير على ما يرام. فقد خان الثقة التي كُنا نُعطيها له. بالطبع، كان هو أيضاً مُحبطاً بسبب فشله. فشل مرة أخرى بعد أن جرب كل المحاولات، وقام بكل ما يمكنه القيام به للخروج من الإدمان. لكنه كان واهماً بشكل كامل. كانت الأسابيع الأخيرة من حياته، هي الأكثر بشاعة، سببت تلوثاً شديداً لجرحه غير الملتئم. اعترف لي فيما بعد أن هذه الهوة العميقة السوداء التي سقط فيها كادت تقضي على حياته مما جعله يصرخ إلى الله: "ساعدني" ليلة الأربعاء الشهيرة هذه دفعته للاتصال بي.

كان "ستيفان" في الماضي، يُكرر إحدى العبارات بشكل متكرر: "أحتاج لشيء أقوى من المخدرات حتى أستطيع التخلص منها".

كتبت هنا بتوسع كل الوسائل، وكل الإمكانيات التي كانت مُمكنة.

مُغامرات العالم لم تكن

قوية بشكل كاف،

محبة الأصدقاء لم تكن

قوية بشكل كاف،

محبة الوالدين والعائلة لم تكن

قوية بشكل كاف،

الدوافع والمُحفزات والوعود بكل قوتها

وهو نفسه لم يكن

قوياً بشكل كاف،

تعليم زوجي له لم يكن

قوياً بشكل كاف،

رفقة ومشورة المتخصصين في الإدمان

لم تكن قوية بشكل كاف،

العلاج الإدماني لم يكن قوياً بشكل كاف،

وجود هدف لم يكن قوياً بشكل كاف،

بدائل المخدرات

لم تكن قوية بشكل كاف،

بيت جديد

لم يكن قوياً بشكل كاف،

مدينة جيدة لم تكن قوية بشكل كاف،

عمل جديد

لم يكن قوياً بشكل كاف،

لم يكن هناك شيء قوياً بشكل كاف.

هل توجد أسئلة كافية؟

الله وحده هو من يُعطي القوة.

الله وحده خالق الكون

هو من لديه كل القدرة.

وقف مرة أخرى على قدميه، وذهب لإجراء فحص جديد عند الطبيب، للتأكد من خلوه من فيروس الإيدز. مرة أخرى، أخذت أشكر وأُسبّح الله لأجل حمايته. حان الآن وقت البدء من جديد، لكن هذه المرة كان يرى الأمر بمنظور مختلف، كان يرى بداية جديدة فيها يسوع المسيح هو ربه وقائد حياته. كان يرى الأمور بشكل مختلف الآن لأنه أصبح مفتوحاً على الإنجيل. بالتأكيد كان الله يُعِدّ قلبه. أصبح "ستيفان" الآن مُستعداً للحصول على مُساعدة المسيحيين. أخذ يذكر ما كان يسمعه من أخيه وأصدقائه في *أغابي*، و

"إريك"، والمرنم، و "جون ميشيل" و "القس جوال" ومني أنا أيضاً. كل هذه البذور الصغيرة من المحبة، والتي زرعت في أرضية قلبه، أصبحت الآن جاهزة للإثمار. لكن كان لايزال هناك الكثير من الأمور المُستترة والتي تحتاج للتنظيف!...

عاودت الاتصال بالقس "توربرت"، مرة أخرى لطلب النصيحة منه. أخبرني أن هناك مكاناً مسيحياً، وكان هو مسئولاً عنه بشكل جزئي، وقد تم افتتاحه منذ عشرة أيام فقط. كان هذا البيت يستقبل المُدمنين. وإذا إراد "ستيفان" الالتحاق به سيُرحب به. لكن قبل اتخاذ أي قرار، كان لابد أن يتقابل مع "ستيفان". فأخذنا موعداً في أحد أيام الأسبوع التالي.

ثم أصبح علينا الآن، تصفية ما قد أسسناه في جنيف من شهر مضى. في ذلك الوقت، ولأنني لم أكن أعرف خطة الله لـــ "ستيفان"، اعتقدت أن هذا كان هباءً، وأنه تبذير للمال ولم يكن له جدوى.

قضى "جون ميشيل" و "آن" ليلة معنا. وفي نهاية العشاء، أعطى "جـــون ميشيل" "ستيفان" أحد الكتيبات ليقرأه ويتعرف

أكثر على الكتاب المقدس.

- شكراً، لكني لا أقرأ. أفضل أن أقول لك ذلك بصراحة. أنا لست مُغرماً بالقراءة، لكنني على استعداد أن آخذه لأرضيك!

- لا، لا تقرأه من أجلي! قد لا تشعر بالفائدة الآن، لكن سترى أهميته لاحقاً.

لم يكن "ستيفان" يُحب القراءة. فالتركيز في الكلام كان يتطلب منه مجهوداً كبيراً، وكذلك كان الكتاب المقدس مُعقّداً بالنسبة له حتى مع مُساعدة الكتيب.

في الصباح عُدت مع "ستيفان" لسويسرا، كان الضباب منتشراً وكان ذلك في أواخر شهر سبتمبر. في "فيابانتو"، حملنا حقائبنا، وكذلك مرتبة مطاطية، وحقيبة نوم، والتي يمكن استخدامهم كفراش ثان في شقته. لم أكن أعرف المدة التي سأتغيب فيها عن البيت، فقد كان الوقت الذي استغرقناه في تسلّم الشقة وإيجاد مكان مناسب لـ "ستيفان"، كان غير معروف. وضعت ثقتي في الله حتى يقودنا ويرشدنا. كان يعرف احتياجاتنا جيداً، وكان هو يتقدمنا في رحلتنا. كانت الخطوة الأولى هي مُقابلة "نوربرت" فقد كان لدينا ميعاد

معه. فأخذتنا رحلتنا أولاً إلى "كوت أو في"، وهي إحدى القرى الساحرة في الجورا السويسرية (أقصى الشمال الغربي لسويسرا). كان يتسائل "ستيفان" في فضول أثناء الرحلة عن مكان توجهنا. قال بشيء من القلق:

– إن المكان بعيد عن كل شيء، سأصاب بالملل في هذا المكان الصغير.

– أنت تُحب البحر والمد والجزر، الأمر ليس كما تظن! لكن الجبال خاصة في شهر الخريف والشتاء تكون فوق الضباب، وتكون أفضل من السهول، أليس كذلك؟ الهواء نقي. والخريف يكون ساحراً بألوانه البديعة والشتاء بثلجه الأبيض الناصع.

أجاب، وهو يهز كتفيه قائلاً:

– نعم!

نقلت إليه مشاعري الرومانسية في ذلك الوصف.

عندما وصلنا إلى مركز القرية، سألت أحد الأشخاص والذي كان منحنياً فوق محراثة يحرث به حقله قائلاً:

– من فضلك أين أجد بيت "فويه أندريه"؟

قال لي الرجل، مُشيراً إلى بيت كبير، مصنوع من الأحجار عبر الطريق، ومحاطاً بالحقول الخضراء.

- هناك.

- شكراً جزيلاً. إلى اللقاء!

عبرنا أول بوابة وصعدنا الدرج، وكان الباب الثاني يؤدي إلى ساحة لتناول الطعام، وعندما وصلنا هناك لمحت عيني آية رائعة من الكتاب المقدس: "وَلَكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا" (رومية ٥:٢٠). كانت الآية مكتوبة على إحدى اللوحات الخشبية ومعلقة على الحائط. شعرت بالفرح الشديد عندما صافحت "نوربرت" أخيراً، والذي قدم لي الكثير من النصائح والمشورة والتعزية عبر الهاتف خلال السنوات الثلاث الماضية. وكنا نعرف "جون دانيال" رئيس البيت. قالا لي عندما وصلنا للمكتب:

- نحن في انتظاركما.

أخذ "ستيفان" يروي لهما قصته بخوف. شرح لنا القس "فالي" نظام البيت: نحن لا نقدم علاجاً، بل نبدي اهتماماً فردياً، مع إعلان للإنجيل، دون وعظ وتبشير. ثم أخذ يشرح بحماسة محبة يسوع المسيح العجيبة. وليعطينا يسوع غفران

الله، كان لابد له أن يُسمَّر على الصليب، وقال مُخاطباً "ستيفان":

- محبة الفادي هي محبة غير محدودة، وقد دفعته أن يضع عليه كل ماضيك وخطايــاك. وجعلته يسفك دمه لأجلك، فقد مات من أجلك.

ثم وضع يديه أمامه، وكأنه يحتضن شيئاً وقال:

- ثم قام من الموت ليُعطيك حياة فيه.

روى لنا "جون دانيال" إختبار إيمانه المُحرك للمشاعر. من البداية، استطعنا أن نرى فيه روح الخدمة بشكل واضح. كان التزامه وتكريسه للشباب قد قاده للعمل في هذا المجال.

صلَّى كلاهما لــ "ستيفان". ثم أخذانا في جولة داخل البيت الذي يسع لعشرين فرداً في حجرات فردية، رأينا الأثاث الخشبي والأرضية الخشبية والسلالم الخشبية والتي كانت توحي بالدفء واللطف. التحق بالبيت ثلاثة أشخاص منذ أن فُتح مؤخراً. ولذلك كان هناك مكان لــ "ستيفان" ويمكنه الالتحاق بالبيت في أي وقت يريده. شعرت بالسعادة والراحة: فلم تكن هناك قائمة انتظار، ولم يكن هناك احتياج لانتظار موافقة الخدمات الاجتماعية، ولم يكن هناك أوراق

كثيرة يجب أن تُقدم. خلاصة الأمر، لم يكن هناك احتياج للتأخير. يمكن لأي مُدمن مخدرات حتى هؤلاء الذين يُعانون من أعراض الانسحاب، أن يطرقوا على باب البيت في أي وقت من النهار، وخلال عطلات نهاية الأسبوع، وعندما يفتح الباب كان يسمح لهم بالدخول. كان يتم قبوله كما هو، حتى لو كانت حالته بائسة، ويمكنه أن يعيش فترة الإنسحاب البشعة مُحاطاً بمساعدة هؤلاء القادرين على مساعدته معنوياً وجسدياً، وهذه المساعدة مؤسسة على حضور الرب. لم أتعامل مع أي من المُدمنين من قبل باستثناء ابني. لكن بالتأكيد وخلال خبرتي مع "ستيفان"، تعلمت الكثير عن هذا المجال، وقرأت كتيبات ومقالات عن هذه المشكلة. ولكن هناك، ووسط هؤلاء، أدركت بالكامل مدى بشاعة الإتلافات التي تُسببه هذه المشكلة. فلا يمكن للإنسان أن يتناول المخدرات لسنوات طويلة دون أن يتعرض للآثار النفسية والجسدية. فمقابلة هؤلاء المُدمنين ورؤية مستوى التدمير الذي وصلوا إليه، جعلني أفكر في ابني، وأشكر الله الذي أنقذه من أن يصل إلى هذا المستوى من الدمار.

وكان علينا الذهاب في اليوم التالي، يوم السبت لرؤية بيتٍ مسيحي آخر، وبعد ذلك كان القرار لــ "ستيفان" للاختيار بينهما. فطلبوا منا إبلاغهم بقراره الأخير يوم الإثنين صباحاً بالتليفون. قبل أن نخرج في طريقنا، أحضر لنا الطباخ بابتسامة عريضة فنجانين من القهوة وطبقاً من المخبوزات.

ذهبنا في اليوم التالي لرؤية بيت مسيحي آخر تابعٍ لإحدى الهيئات الإرسالية، كان مزرعة قديمة تم تجديدها واستخدامها كمركز لعلاج الإدمان، كان يقع على شاطيء إحدى البحيرات مُحاطاً بكروم العنب. كانت الضيافة مليئة بالود والترحاب، وكان نظام العلاج مؤسساً على الإنجيل. ذهبنا للتجول في البيت وقدموا لنا عرضاً يشرح نظامهم في التعامل وفي مساعدة مدمني المخدرات. كان مبنى صغيراً يمكنه استقبال عدد قليل من الأفراد، وكان هناك مكان متاح لــ "ستيفان" هناك.

امضيت بعض الوقت مع "ستيفان" في شقته الصغيرة. قمنا بتحريك بعض الأثاث، وافسحنا مكاناً للمرتبة المطاطية وحقيبة النوم، نام هو على الأرض تاركاً لي فراشه لأنام عليه. امضينا الليلة نتبادل الأفكار حول البيتين. أخذنا نفكر

في ميزات وعيوب كلٍ منهما. أيهما نختار؟ كانت ملاحظاتنا متشابهة إلى حد كبير، لكن كانت لي تحفظاتي وآرائي عن الأمور السلبية لنفسي، حتى لا أؤثر عليه وعلى قراره بطريقة أو بأخرى. ما جعلني لا أرجع البيت الأول هو تدني حالة المدمنين الموجودين هناك، وشعوري بأنه لا يناسب ابني، على الرغم من أنه أيضاً مُدمن. وكذلك البيت الثاني وجدت أنه أكثر بدائية وأقل خبرة في التعامل مع مثل هذه المشكلة الخطيرة. وكان الأفضل أن نترك مثل هذا القرار بين يديّ الله. فهو الذي يستطيع أن يعرف جيداً ما هو أفضل خيار لنا. قبل أن أنام، صليت وطلبت من الله الإرشاد، وطلبت منه أن يُعطي "ستيفان" القرار الصائب. نمت في هدوء وكلي ثقة أن أبي السماوي سيتدخل.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، شعرت داخل قلبي بالانحياز لاختيار معين. فقد استجاب لي الله بقوة. واختفت كل المشاعر السلبية من داخلي، وشعرت بالاقتناع الكامل بأن الله يريد أن يذهب إبني إلى "فويه أندريه". انتظرت حتى استيقظ "ستيفان" وقلت له ببساطة:

– أعرف الآن ما يجب علينا فعله.

لم أرد أن أقول المزيد، فقد كان هذا اختياره الشخصي.

ثم قال لي:

- أنا أيضاً أعرف.

ثم نظر إليَّ وقال دون أن يطرح أي سؤال:

- سأذهب إلى "فويه أندريه" أشعر بأنني سأرتاح هناك أكثر، فهذا مكان قوي وثابت. وبعد ذلك سأصبح قادراً على مُساعدة آخرين من نزلاء هذا البيت، ممن تأثروا بالمخدرات أكثر مني.

تعجبت عند سماعي كلامه، وتأثرت كثيراً بما قاله. بالتأكيد، كان هذا القرار من الله وقد وضعه في قلبه.

- أتفق معك. هذه هي استجابة الله لصلواتنا.

دُعينا يوم الأحد، لحضور التسبيح والعبادة، ولتناول إحدى الوجبات مع مجموعة من الأصدقاء في مكان قريب من جنيف في إحدى القرى الصغيرة هناك. ومرة أخرى وسط عائلة الله، أحاطت بنا محبة الإخوة وشعرت بالتقدير والامتنان الكثير بهذا التعضيد والمساندة.

وكما خططنا، اتصل "ستيفان" في صباح يوم الإثنين ببيت "فويه أندريه" وأخبرهم بقراره النهائي. حان الآن وقت

تصفية شقته وتركها. ذهبنا لوكالة التسكين لفسخ عقد الشقة. لكن لأننا قد استأجرنا هذه الشقة من وقت قصير، كان يجب علينا أن نجد مستأجراً جديداً حتى نتمكن من فسخ العقد، واسترداد المال الذي دفعناه. لكن على الرغم من هذا الأمر، إلا أن السكرتيرة أشفقت علينا، وأعربت لنا عن اهتمامها بالأمر، وأنها ستحاول مساعدتنا على إلغاء العقد في أقرب وقت ممكن. قمنا في اليوم التالي بعمل إعلان صغير بالجرائد. كان الرب يعلم جيداً حالتنا، فطلبنا منه أن يساعدنا في إيجاد مُستأجر بسرعة. ذهبنا بعد الظهر لزيارة "جوال" وأسرته. كان هو الذي ساعد "ستيفان" منذ وقت قصير، أثناء حالته المزرية الأخيرة، وكان سعيداً أن يراه في حالة أفضل، وأن يعرف أنه سيذهب للإقامة في أحد البيوت المسيحية.

أمضينا يوم الثلاثاء في البيت، منتظرين الاتصالات التليفونية كرد على الإعلان الذي كتبناه في الجرائد. تقدم لطلب الشقة أربعة من الشباب في ذلك المساء وفي صباح اليوم التالي. كانت هناك ميزة رائعة: وهي أن الشقة كانت تقع بالقرب من إحدى الجامعات، وكان هذا هو وقت بداية

السنة الدراسية. بين هؤلاء المستأجرين، أعجبت إحدى الشابات الأجانب بالشقة بعد ساعات قليلة. وبقي موافقة وكالة التسكين.

وفي يوم الأربعاء، ذهبت مع هذه الفتاة لوكالة التسكين، حيث لم تكن تعرف المدينة، وحتى نتمم بقية الإجراءات. وافقت وكالة التسكين على فسخ عقد الإيجار معنا. بالإضافة إلى ذلك، دفعت لنا هذه الفتاة نصف إيجار ذلك الشهر فقد كان الشهر لا يزال في بدايته، واشترت منا كذلك الأثاث الذي أردنا بيعه، الفراش والمنضدة وكان المبلغ المدفوع معقولاً جداً. أخذت أشكر الرب وأُسبِّحه في تلك الليلة بامتنان شديد لتدخله المباشر. فقد وجدنا مُستأجرة خلال ساعات قليلة.

وفي يوم الخميس، وبعد الانتهاء من بعض الأوراق والإجراءت الإدارية، قمت بتنظيف الشقة وكان "ستيفان" قد ذهب للمرة الأولى لبيت "فويه أندريه" ليضع أغراضه التي أراد الاحتفاظ بها هناك. وقامت وكالة التسكين بفحص الشقة في نفس اليوم.

يوم الأربعاء ذهبنا إلى البنك لسحب النقود التي وضعتها في حساب "ستيفان" لتغطية إقامته في جنيف. قبل أن نصل إلى باب البنك، قال لي "ستيفان" فجأة :

- سأدعك تذهبين بمفردك، فلديك التوكيل، وسأنتظرك هنا.

- لماذا؟

شحب وجهه وشعر بعدم الراحة وقال بعد لحظة من التردد:

- لا يوجد نقود في الحساب! في الحقيقة، لم يتبق...

شعرت بالغضب الشديد، سحبته جانباً وقلت له:

- أنت لم تنفق كل النقود، أليس كذلك؟

لماذا لم أتوقع ذلك؟ أخذت أراجع بعض الحسابات في ذهني لأحاول فهم حقيقة هذا الأمر. لقد ترك العمل بعد أيام قليلة وأعرف جيداً أن المخدرات باهظة الثمن، لكن لا يزال الأمر غير مفهوم! حاولت الحصول منه على تفسيرات أكثر للأمر، لكنه لم يستطع إعطائي أي تفسير، فقد نسى تماماً ما حدث. لم يعد هناك جدوى من هذه التحريات، فقد كان ثمن المخدرات الباهظ هو المبرر الوحيد لمثل هذا الأمر. شعرت بالغضب الشديد منه ومن هذه المخدرات القذرة وآسفت على هذه النقود التي ضاعت وأُنفقت بسرعة. كان من الصعب

عليَّ التفكير بشكل منطقي، ووجدت نفسي أُفكر في التلفيات الأخرى الأكثر ضراوة من الخسائر المادية، والتي تتسبب فيها المخدرات. حاولت جاهدة أن أُهدئ من غضبي. لكنني صممت أن يصحبني إلى داخل البنك لأعرف على وجه التحديد رصيد البنك، وليسحب ما قد يكون متبقياً في الحساب. ودون أن يجرؤ على النظر إلى وجهي قال بخجل:

- أنا آسف.

قلت متنهدة:

- لا عليك، ما حدث فقد حدث، لا يمكننا الآن الرجوع إلى الماضي. يجب علينا التحرك للأمام.

ذهبنا لوكالة التسكين، وقدمنا للسكرتيرة باقة من الورد، كتعبير عن شكرنا لها للمجهود الذي قامت به معنا، ومساعدتنا على الإسراع في إجراءت إلغاء العقد. أخذت من الوكالة كل المبلغ الذي دفعناه كتأمين للشقة. كنا في احتياج لهذا المبلغ. بعد الظهر، ذهبنا مرة أخرى لـــ "كوت أو في" لنحضر الأدوات التي قد يحتاجها البيت، أدوات منزلية ومنظفات ومكنسة كهرباء.

يوم السبت، وضعنا في السيارة المتعلقات الأخيرة لـ "ستيفان" وكان هذا هو يوم انتقاله للمرحلة الجديدة من حياته. بينما كان "ستيفان" يقود السيارة، أخذت أفكر وأتأمل في وجود الله وأمانته معنا. فقد قاد كل شيء بشكل رائع.

- "ستيفان"، هل تدرك أننا وجدنا البيت المسيحي، وصفينا شقتك، وقمنا بالإجراءات الإدارية، كل ذلك تم في أسبوع واحد؟

أجاب بتجهم:

- نعم.

لم يكن "ستيفان" يُدرك بعد مقدار محبة الآب السماوي. أستطردت في أفكاري بصوت مرتفع وقلت:

- لقد ألقينا بأحمالنا واحتياجاتنا عليه، وكانت معونته لنا عظيمة. حتى أصغر التفاصيل قد اهتم بها وكان أميناً في معونتنا. خلال هذا الأسبوع، تقدمنا الرب في كل خطواتنا. يمكننا بكل الثقة أن نقول، إنه هو من أعدَّ لنا الطريق. أن نعطيه حياتنا يعني، أن نثق فيه، ونتوكل عليه، ونتأكد أنه سيقودنا بيديه الثابتتين، ويقوم بأفضل ما يمكن من أجلنا.

استمع لي "ستيفان" دون أن ينطق بكلمة واحدة، لكنه كان مُقتنعاً بأن كل ذلك كان جيداً.

قدنا السيارة في السهول عبر الطريق السريع وسط الضباب. ثم بدأ الطريق يأخذ في الارتفاع وكان على جانبيه الأشجار المرتفعة ومر الطريق داخل الغابات، لم نستطع رؤية قمم الأشجار. عبرنا طبقة السحب وفجأة أصبحت السماء واضحة أمامنا، وكأنها معجزة واستطعنا رؤية الشمس، وكأنها تستحم في زرقة بحر السماء. دائماً ما يكون هذا المشهد رائعاً وبديعاً، رأينا بحراً من الضباب والسحب من تحتنا وهي تغطي السهل بالكامل. هذا الغطاء من السحب ذات الشكل القطني جعلني أتخيل شكلاً للحدود، ورمزاً لكلٍ من العالمين: العالم التحتي حيث الفراغ الغارق في الظلمة، والعالم الأعلى حيث الحياة الفائضة بالنور. صورة قادتني لأفكر بشكل تلقائي في الحياة بنور يسوع المسيح، والحياة بدون هذا النور.

استمر الطريق يعبر الحقول والمزارع والقرى الصغيرة. وبعد عدة منحنيات وصلنا إلى بيت "فويه أندريه". وصلنا في وقت الظهيرة ودُعينا لتناول الغداء. قبّلنا الدعوة بامتنان،

وسمحت لي هذه الفرصة، أن أعرف أكثر عن هذه العائلة، التي سينضم إليها ابني، ويعيش معها لمدة من الزمن غير معروفة. تقابلت مع "آن ماري"، مُساعدة "جون دانيال"، والتي أجرت معنا لقاءً في زيارتنا الأولى. كانت "آن ماري" امرأة قوية الشخصية، وقد وضعت كل قلبها لأجل التنظيم، ولأجل إدراة البيت، وكانت تفعل ذلك بتكريس كامل. انتقل "ستيفان" لحجرته الجديدة. لم أرد أن أتأخر أكثر من ذلك، فقد كانت أمامي مسافة طويلة للعودة إلى البيت، ولم أرد أن أقود السيارة في الظلام. عند مغادرتي قال لي "جون دانيال" وهو يصافحني :

- "ستيفان" هدية لنا. الله هو الذي أرسله لنا.

قلت باندهاش:

- أمر رائع...

أكدت لي "آن ماري" هذا الكلام، وكررته قائلة:

- نعم هذا صحيح، هو هدية لنا.

في البداية اندهشت كثيراً بسبب هذه العبارة. "كيف يمكن لمُدمن أن يكون هدية لمركز علاج الإدمان؟" أخذت أفكر بشكل منطقي. ولكني فكرت بأن "ستيفان" لم يكن يُعاني من

آثار شديدة للمخدرات، قد يكون في إمكانه أن يأخذ بعض المسئوليات الأكبر في العمل ويقوم بمساعدتهم. على سبيل المثال، لأن لديه رخصة قيادة، يمكنه أن يساعدهم في قيادة السيارة.

تركت ابني بحزن شديد، لكن هذه المرة لم يكن لديَّ شك في أنني قد تركته في المكان الذي عينه الله له. تركته بثقة شديدة.

بعد مرور عدة أميال، شعرت بوحدة شديدة. كانت هذه المشاعر طبيعية بعد هذا الوقت المشحون بالتوتر. توقفت قليلاً عند مركز الجمارك الصغير. سألني موظف الجمارك السويسري:

- من أين أتيتِ؟
- من قرية ليست بعيدة من هنا.
- هل لديك أسرة وأصدقاء في هذه المنطقة؟

فاجأتني هذه الأسئلة وهذا الفحص. كانت هذه هي المرة الأولى التي ألفت فيها انتباه مكتب الجوازات. ربما أراد فقط هذا الموظف أن يتبادل معي أطراف الحديث. لا أعرف ما حدث معي، لكني بدأت أتلو عليه بعض النكات:

- أتعرف، أنا لا أحمل مخدرات. لكن على العكس، فقد أحضرت ابني ليقيم في أحد بيوت العلاج الإدماني.

- للأسف، لو كان الأهل يهتمون بشكل أكبر بأبنائهم، لكان عدد المدمنين في المنطقة أقل من ذلك بكثير.

لم أجد ما أقوله سوى:

- أنت على حق يا سيدي.

- رحلة سعيدة يا سيدتي.

كانت هناك سيارة خلفي. رجع موظف الجمارك للخلف وأشار إليَّ بالرحيل. أخذت أفكر لعدة دقائق في هذا الحديث الذي دار بيني وبين موظف الجمارك، والذي جعلني أتساءل. على أحد الجوانب، كنت أود أن أسترسل أكثر في الحديث مع هذا الشخص. هل يا ترى يعيش في منطقة يزداد فيها هذا الوباء؟ دفعني هذا للتفكير في عائلات مفككة بسبب هذا الوباء. لم أكن أنا الأم الوحيدة التي يُعاني ابنها من إدمان المخدرات، كيف تعيش تلك الأمهات حياتهم التي تتسم بالحزن والأسى والمزروعة بالأشواك دون أن يروا إحدى الورود تتفتح؟ كيف يعيشون في هذا الأفق المُظلم، والذي لا تشرق فيه الشمس أبداً؟.

الفصل الخامس عشر

إطلاق وحرية

بعد عودتي للبيت، استطعت أن أعود لممارسة حياتي الطبيعية. كنت أعرف أن "ستيفان" في أيدي أمينة. بالطبع، كأي مركز آخر لإعادة التأهيل كان وجوده هناك أمراً اختيارياً. وكان حُراً في اختياره للبقاء أو عدم البقاء. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً، فقد أُعجب بنظام المكان. المراكز العلاجية الأخرى لم تكن مناسبة له. من البداية، استطاع "جون دانيال" أن يميز أن "ستيفان" بدأ يسترد بعض الأمور الصالحة في الحياة، فقد تسببت الطرق العلاجية الإنسانية التي خضع لها من قبل في فشله. لكن ولحسن الحظ اكتشف أن المخدرات والسلوك المتشرد الذي يُصاحب حياة الإدمان، لم تتسبب في الكثير من التدمير لحياته.

وهنا، لا يوجد فترات من الراحة مع العائلة والأصدقاء، بل على النقيض كان هذا المكان منعزلاً. لذلك كنا نتبادل الأخبار مع بعضنا البعض. بالطبع لم تكن الحياة اليومية سهلة، كان الصراع متواصلاً فتأثير المخدرات لم يكن

بسيطاً. لكن تشجيع ومحبة وصبر "جون دانيال" و "آن ماري" كان مصدر تدعيم وقوة لا تنتهي. وفي هذا الجو الجديد، لم يعد "ستيفان" يشعر بالإدانة أو النقد. قال لي في أحد الأيام أثناء حديث تليفوني:

– هنا لا يعاملونني كمدمن مخدرات، بل كفرد له كيانه. أتعرفين يا أمي، لم أرَ من قبل في حياتي مثل هذا الحب.

سكبت هذه الكلمات بلسماً على رأسي. يوجد الكثير من الأجزاء الكتابية، التي تتكلم عن المحبة، ولكنها الآن أصبحت أكثر قوة وتأثيراً بعد أن قال لي "ستيفان" هذا الكلام. أخذت أتأمل فيما كتبه الرسول بولس: ".. وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئًا" (١كو١٣: ٢). وبالفعل، فقد تأثر القادة والمشرفون في هذا المركز بهذه المحبة التي يعلِّمها لنا يسوع. فمحبة الآخرين مُمكنة عن طريق محبة يسوع المسيح.

كان هناك أمر آخر مهم جداً أكده "ستيفان" لي:

– هنا، أشعر بالقيمة وأشعر أنني مفيد.

فقد ضاع من "ستيفان" كل احترام وكرامة وكان يشعر بعدم القيمة داخل المجتمع، وكان يشعر بأنه لا يستطيع فعل

أي شيء مفيد، وجد قيمة حقيقية لنفسه مؤسسة على محبة يسوع المسيح. لمس "ستيفان" كثيراً من القيم المسيحية، لكن في ذلك البيت، كان يرى ذلك كل يوم حيث إن البيت كان يدار على هذه القيم والمباديء: الغفران والنعمة ومحبة الله. وبدلاً من أن يصارع مع قيمه الخاصة، فتح قلبه بالكامل لقيَم الله ومبادئه، وخاصة في التعامل مع الأفراد.

كان يذهب القس "ريتشارد" من كنيسة الحرية الموجودة في القرية لزيارة نزلاء البيت. وكان "ستيفان" يحب زياراته. وكذلك كان شباب الكنيسة كثيراً ما يذهبون لزيارة البيت، وللمساعدة في بعض الأمور العملية، وقد توطدت علاقة "ستيفان" معهم. وعن طريق هذه الأنشطة مع هؤلاء الشباب، بدأ "ستيفان" يشترك تدريجياً في الحياة المسيحية. لكن هذا لم يمنعه، رغم شخصيته القوية، من أن يمر ببعض الأزمات القوية. أثناء تعاطيه المخدرات، استطاعت شخصيته القوية أن تخدع من حوله بسبب طريقة تحكمه الشديدة في سلوكياته، مما أدى لعدم تدمير شخصيته بالكامل. كان يذهب بشكل منتظم وبرغبته الشخصية لحضور اجتماعات التسبيح في الكنيسة. وكان أحياناً يشترك في تناول وجبات *الأغابي*

(المحبة) والتي يتم تنظيمها بعد اجتماعات التسبيح، كانت هذه الوجبات تُعَّد داخل مطبخ البيت، الذي يعيش فيه "ستيفان". خلال هذه الاجتماعات، كانت هيئته الخارجية تبدو بحالة جيدة، لكن عينيه كانتا تبدوان وكأنهما غائبتان وأفكاره كانت شاردة في مكان آخر.

كانت "آن ماري" و "جون دانيال" يمضيان وقتاً كبيراً في الحديث مع "ستيفان". وفي أحد المرات، كان أحدهما يشارك معه أحد أمثال الكتاب المقدس، وهو مثل الشاب الغني المذكور في الأناجيل، واكتشفوا معاً أن مشكلة "ستيفان" لم تكن الغنى والإنجازات، بل كانت رفضه أن يتخلى عن حياته، وعدم تركها لسلطان وسيادة الله. وفي يوم الأحد التالي، كان الراعي يعظ بنفس الرسالة التي كانوا يُشاركون بها مع "ستيفان" خلال الأسبوع. وقد لمست هذه الرسالة قلبه بشكل قوي. فاستمع للعظة بانتباه شديد. وأخذ يمتص كل الكلام كما يمتص الأسفنج الماء. وشعر أن هذه الرسالة موجهة له شخصياً. أخذ "جون دانيال"، والذي كان يجلس بجواره، يشاهده وهو يضع رأسه بين يديه ويُصلِّي، فقد كانت روحه تتألم، وقلبه مُنكسراً، وكان يدور داخله صراع

عنيف. وقد ظهر عليه الغضب بسبب الشكوك والأسئلة. فقد كان "ستيفان" يعرف أن ما يسمعه أمر جيد وهو الحق بعينه، لكنه أخذ يُقاوم، واستمر يسلك في قوانينه الشخصية. وأصَرَّ على ألا يستسلم ويتخلى عن قناعاته وقوته الشخصية. في الحقيقة، استمر في التمرد، ولم يصل إلى الخضوع لله.

بدأت عزيمته تكتسب نشاط وثقة جديدتين، وربما بعض الكبرياء وعزة النفس، والذي جعله يشعر بالقدرة على السيطرة على الموقف جسدياً ونفسياً أكثر من مُدمني المخدرات الآخرين، مما منعه أن يلجأ ويرجع بالكامل للرب. كل هذه العوامل كانت تقف حائلاً، دون انفتاح قلبه بالكامل على يسوع المسيح. وكانت حاجزاً سيقوم الله بتدميره بعد فترة من الوقت.

في أحد أيام السبت، ذهب مع "آن ماري" و "جون دانيال" إلى اجتماع لمجلس الإدارة في مدينة صغيرة على مقربة من جورا. وبسبب توقعه أنه لن يكون هناك أحد في صحبته خلال فترة الاجتماع، والتي سيكون فيها مُنتظراً حتى ينتهيا ويعود بهما للبيت، قام بتنفيذ فكرة في رأسه لمدة ساعتين. ذهب للتجول في المدينة.

ماذا يستطيع أن يفعل خلال هذا الوقت من الانتظار؟ أخذ موعداً مع عدوه! وفي أحد الأركان، كانت المخدرات تشاهده وتنتظره... الاستجابة لها مرة لن يكون له تأثير كبير ولن يراه أحد. الكبرياء والثقة بنفسه دفعاه للسقوط. وفي المساء وعندما رجعوا للبيت، بدأ النزلاء والموظفون يلاحظون تصرفات غريبة تظهر على "ستيفان"، فلم يكن طبيعياً. بدأ يشعر بالخجل ربما للمرة الأولى، وبدأ ضميره يؤنبه ويشعر بالخوف. لم يفهم لماذا وقع في التجربة، فقد كان يظن أنه أصبح قوياً، وكان يؤمن أنه قد خرج من المشكلة. وبدأ يشعر بأنه خائن: "كيف يمكنني تناول المخدرات، بينما أحاط بكل هذه المحبة من حولي؟". لم يحاول شرح فعلته التي خطط لها من قبل، ولم يحاول تبرير موقفه. كان يشعر بعبء شديد، وكان هذا العبء يزداد. فقرر أن يعترف لـ "جون دانيال"، وبعد هذه اللحظات القوية من الإصغاء والمشاركة، عرض عليه "جون دانيال" مقابلة الراعي.

مرت عدة أيام، ولكن لم يستطع أي شيء أن يهدئ من القلق الذي كان يملأ قلبه. وأصبح موقفه غير مُحتمل، ولم يستطع التخلص من مشاعره السيئة ومن إحساسه بالذنب.

وبدأ يشعر بالعجز، وبأنه قذر من الداخل. كانت تدور داخل قلبه حرباً شعواء: بين إرادته الشخصية، وبين رغبته في تسليم الله كل دمار وفساد في حياته. وبدأ يُدرك أنه لن يستطيع منافسة الله، ولن يقوى على الصراع مع الله. فطريق الإيمان بالله لا يقبل المُساومة. وفهم أنه لم يكن كافياً أن يؤمن فقط بوجود الله، لكن لابد أن يتقابل وجهاً لوجه مع يسوع المسيح، فهذا هو نوع الإيمان الذي سيشبع عطشه للسلام.

ولذلك، قرر أن يتصل بالراعي. فقد كان يعرفه بشكل كاف، ويمكنه الآن أن يفتح له قلبه. ومع ذلك، كان يشعر ببعض الخوف وبأن شيئاً سيحدث...

– آلو! "ريتشارد"؟ أنا "ستيفان". هل لديك بعض الوقت هذا الصباح. فقد نصحني "جون دانيال" بمقابلتك.

– بالطبع، تعال الآن.

طرق "ستيفان" على باب المكتب الواقع فوق الكنيسة. في الداخل، كان هناك منضدة من خشب قديم، والذي كان يستخدم من قبل في أحد صالات الطعام، وكان هناك صفان من الكتب فوقهـــا، وبجوارهـــا كان هناك مقعـــدان لونهما

أخضر، قال الراعي:

- ادخل! تفضل.

جلس "ستيفان" على المقعد. أخذ يدور بنظره حول الحجرة بدءً من رفوف الكتب إلى الكمبيوتر والنافذة، وأخيراً أخذ ينظر للراعي الجالس على المنضدة القديمة. بعد أن فحص المكان جيداً، بدأت تتكون لديه فكرة مُؤكَّدة عن المكان الذي كان جالساً فيه، قبل أن يبدأ حديثه ويفتح قلبه. وقد خزن هذه المعلومات. كانت هذه هي عادة قديمة مُفيدة للبقاء وسط حياة الإدمان. قال الراعي:

- ماذا تُريد أن تقوله، كيف يُمكنني مساعدتك؟

لم يكن يعرف من أين يبدأ. كان يُريد أن يُخبر الراعي بتاريخ حياته، طفولته، حياته في المخدرات، وكيف وصل إلى "كوت أو في". وبمجرد أن بدأ الكلام، أخذت العبارات والقصص والأسئلة تتدفع من فمه. لم يكن يشك أنه الآن في مفترق طرق. وكان السؤال الأساسي الذي يدور داخله هو: "كيف يمكنني أن أتأكد من أنني لن أضل مرة أخرى؟ كيف يمكنني أن آخذ القرار القاطع، القرار الذي يضع نهاية لحياة الماضي ويبدأ مرحلة جديدة من الحياة؟" قضى لحظات جيدة

في رواية وتذكّر قصة حياته. قال الراعي:

- لقد قادك الله إلى هذه القرية الصغيرة فوق الجبل، حيث يمكنك التقابل معه، ومع أخباره السارة. ألا تظن أنه قد حان الوقت لاتخاذ قرار جذري بالالتزام بتبعية الله بشكل دائم؟ أتعرف، الأمر أسهل مما تظن. كل ما يتطلبه الأمر هو صلاة صادقة. يمكننا عمل هذا معاً إذا أردت ذلك.

وهناك داخل ذلك المكتب الصغير، صلى الراعي أولاً، ثم سأل "ستيفان". أجاب "ستيفان" بانكسار وانهيار واقتناع كامل بأخطائه، ووضع أحماله عند أقدام الصليب. ووضع حياته بالكامل دون تحفظات للآب. وقبِل يسوع المسيح مُخلِّصاً شخصياً له. ومع قبول المسيح، عَبَّر ابني من الموت للحياة، وولِّد الولادة الجديدة في يسوع المسيح. كسر الله القيود وحرره وأطلقه ورفعه. وملأ الروح القدس المعزي قلبه. رجع "ستيفان" للبيت براحة كبيرة في قلبه، وتحرر أخيراً من حمله الثقيل وأصبح شخصاً حراً.

منذ ذلك اليوم التاريخي، والذي ختم فيه الله قلب "ستيفان"، بدأت حياة جديدة لابني. حياة جديدة فوق طبيعية أعطاها له يسوع المسيح. وأصبح "ستيفان" شخصاً آخر،

شاباً يافعاً ممتلئاً بالفرح، ربت بخفه على كتف "آن ماري" وقال لها مشيراً إلى نفسه:

- قولي لي من يكون هذا الشخص؟

لم يكن يحتاج لأن يقول أكثر من ذلك. فقد كانت عيناه اللامعتان وابتسامته يعكسان نعمة الله. دون شك، كانت عيناه تعلنان التغيير الذي أحدثه المخلِّص في أعماق نفسه. امتلأ المسئولون ونزلاء البيت بالفرح الشديد لأجل التغيير الذي حدث له.

نعم، فمنذ ذلك اليوم بدأت حياته تُبنى تدريجياً. فقد جاء يسوع الراعي الصالح ليجذبه من الهاوية التي كان تائهاً فيها وسط الذئاب. وكذلك بدأ يسوع الطبيب العظيم في معالجة جروح نفسه عن طريق غفران خطاياه.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، ترك "ستيفان" زمام حياته بين يدي الله خالقها.

ياله من فرح في السماء، وياله من فرح داخل قلبي. هللويا! بملء الامتنان أخذت أُسبِّح الله مرة بعد مرة. فقد استجيبت صلواتي. فالخلاص هو معجزة النعمة. أدركت أيضاً رحمة الله غير المحدودة، التي أحاطت ابني بالحماية

وأنقذت حياته. فبالسلطان الإلهي، أنقذ الله ابني من الإيدز والدعارة والضياع.

بعد ثلاثة أسابيع، وأثناء موسم الأعياد، ذهبت أنا و "أنطوني" لزيارته في البيت. وكان أمراً مُشجعاً للغاية أن نرى التغيير الجذري في حياة "ستيفان"، عينيه الصافيتان والمنتبهتان والمضيئتان كانتا سبب تعزية كبيرة. استمتعت كذلك بالحديث مع "جون دانيال" عن تغيير "ستيفان". قال لي:

- سيمكنه الآن أن يخرج!

كان التغيير في حياة "ستيفان" واضحاً بشدة. أخذ الله في تشكيله بشكل رائع. وكان ينمو روحياً. استمر في البيت شهوراً قليلة. كانت الهيئة تُوفر لكل نزلاء البيت، إقامة في أحد القرى القريبة داخل إحدى الشقق الخاضعة للحماية. كان ذلك معناه أن هذه الشقة كانت ملكاً لمديري البيت، وكانت قريبة منه حتى يكون متاح للمسئولين في أي وقت لتقديم المساعدة. كان العمل مميزاً في ذلك البيت وبسرعة أعطاه "جون دانيال" بعض المسئوليات ليساعد النزلاء. كان كل يوم يتعلم ويكتشف محبة الله ونعمته غير المشروطة، فقد كانت هذه هي القيمة التي يدار بها بيت "فويه أندريه".

كنت أتعجب يوماً بعد يوم من نعمة الله المُحررة. كان النور البعيد الواقع في نهاية النفق المُظلم الذي كانت حياة "ستيفان" تجتاز فيه، والذي كان قوياً في الماضي لم يعد هو لمحة الأمل التي تعلق بها "ستيفان" مرة أخرى، بل كان نور يسوع المسيح الذي أعطاه الرجاء والأمل الحقيقيين. فقد انطبق عليه وعد الآب: "لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ. بِنُورِكَ نَرَى نُورًا" (مز ٣٦: ٩).

كان يسوع هو الوحيد القادر على تحرير ابني. نعم، دمر الله قبضة المخدرات عن "ستيفان" وأعطاه الحياة. فقد كان محكوماً عليه بالموت داخل سجن المخدرات، لكن الرب أطلق سراحه وغفر له. وتحرر كذلك من التدخين. وتحرر أيضاً من الحزن. كل تلك الأمور، تأتي فقط من قبل الله. نعم، فقد نقله القدير من الظلمة إلى الحياة.

أقامه الله بالكامل من ماضيه وأعطاه قيمة عالية وأكيدة. مع الله، تعلَّم أن يحيا بطريقة مختلفة، ليس بقوته الخاصة، لكن بروح الله، الذي يسكن الآن في قلبه. وكان الروح القدس يقنعه بالتوبة، وكذلك بمحبة يسوع المسيح غير المشروطة. فتلك المحبـــة التي لا تُقدر بثمن، أصبحت الآن

تملأ قلبه وحياته.

"فَاثْبُتُوا إِذًا فِي الْحُرِّيَّةِ الَّتِي قَدْ حَرَّرَنَا الْمَسِيحُ بِهَا" (غلاطية ٥:١).

أدرك "ستيفان" أنه خلال سنوات الإدمان، لم يستطع أن يحيا مُعتمداً على الضمانات البشرية، ولا على الآمال البشرية حيث خابت كل آماله. والآن، يمكنه معرفة الفرق بين هذا وبين حياة الرجاء المسيحي المجيدة والرائعة. فالإيمان غير مؤسس على النيات أو الاحتمالات، بل هو الثقة في عمل الله، وأن الله يُنفِّذ ما يقوله في كلمته ووعوده. الله إله حي. وكلمته حق. ولا يوجد ما يُمكنه أن يقلل أو يزيد من إنجيل الله الكامل. والكتاب المقدس ليس هو كتاب بين بقية الكتب، بل هو كلمة الله التي يُعلِّن فيها الله عن نفسه لنا.

بالطبع، لم تكن سماء هذه الحياة الجديدة دائماً صافية خالية من الغيوم، فالعدو كان يحاول بشتى الطرق أن يجعله يسقط مرة أخرى. فقد كان الإدمان لا يزال راقداً في أعماق ذهنه، وقادراً على الاستيقاظ في أي لحظة. وعندما كانت التجربة تلوح في الأفق، تعلَّم "ستيفان" ألا يعتمد على قوته الشخصية في المُقاوَمة، فقد كان يذكر اختبارات الماضي. والآن بقلبه

الجديد، المُمتلىء بالروح القدس، كان يطلب قوة المُخلِّص لتعينه على مُقاومة التجربة. ففي ضعفه كان الرب قوياً. كان "ستيفان" يُجيب جميع من يسألونه عن كيفية مُقاومته للتجربة قائلاً:

– الأمر لا يحدث بقوتي الشخصية، بل الرب يُعطيني القوة. فلا فضل لي، الله وحده هو صاحب الفضل، وهو من يستحق المجد.

الآن وقد هزم العدو. انتصرت قوة يسوع المسيح على الشر، وانتصر الله في المعركة. ممتلئاً بحضور الله، بدأ يأخذ كل تحريضات وتعليم الكتاب المقدس بمحمل الجد. وعندما كان يمر بأوقات من الخوف، كان يتوكل على الملاذ الوحيد الآمن، وهو ملاذ مُخلِّصه. وفي أوقات الضعف، كان يتمنطق بسلاح الله الكامل:

"الرَّبُّ عِزِّي وَتُرْسِي. عَلَيْهِ اتَّكَلَ قَلْبِي، فَانْتَصَرْتُ. وَيَبْتَهِجُ قَلْبِي وَبِأُغْنِيَتِي أَحْمَدُهُ" (مز ٢٨: ٧).

الفصل السادس عشر

حياة جديدة

بعد عام من وصوله لبيت "فويه أندريه". تغير وضع "ستيفان" من نزيل في البيت إلى أحد المُشرفين، وذلك بعد مرحلة من الدراسة، حول كيفية استقبال ومُرافقة نزيل جديد. ولذلك، التحق بأحد التدريبات، وحصل على تدريب لمدة عام لوضع الأساسات الأولى في هذا المجال. أعطته الخبرة المؤلمة التي اجتاز بها، وكذلك حياته الجديدة في المسيح، الكثير من التحنن والمحبة لمساعدة اخوته من النزلاء. الآن أصبح يستمع لمن يجتازون في نفس مشكلته التي اختبرها في الماضي. وخلال هذا العمل في بناء علاقات هدفها المساعدة، استطاع استخدام هدوئه وصبره، وبدأت صفاته الأصلية تحيا من جديد.

كان عملاً يومياً، كانت الصلاة لهؤلاء الشباب المتأثرين بالمخدرات استثماراً حقيقياً. كان عملاً شاقاً لا ينتهي، لكنه كان ممكناً فقط بمعونة الشخص القادر على كل شيء. لم يكن الأمر وردياً دائماً، فأحياناً كانت هناك أمور مُحبطة

وحالات صعبة تدعو للاستسلام واليأس. وكان المشرفون مثل "ستيفان"، يحتاجون التجديد الإلهي كل يوم جسدياً وروحياً.

منذ ذلك الحين، أصبح "ستيفان" يعيش في شقة، على بُعد ربع ساعة بالسيارة من "كوت أو في". كانت لديه مهارة في العمل، فقد أعطى نفسه بالكامل لعمله كمُشرِّف وكان محبوباً للغاية. وبدأ كذلك في ممارسة الرياضة مع مجموعة من شباب الكنيسة، كانوا يلعبون التنس والكرة الطائرة والتجول في الغابة عندما يكون الجو مناسباً، ورياضة العدو والتزحلق على الجليد فوق الجبال. لقد أصبح الآن لائقاً جسدياً. كان يواجه كثيراً من الإحباط والأسف أثناء ممارسته التنس في فترة المراهقة. لكنه اليوم، أصبح قادراً على ضرب الكرة بمضربه بحماسة وفرح شديدين.

استطاع أن يشتري سيارة، بدخله الذي يتلقاه مقابل عمله، والتي أصبحت ضرورية لتنقلاته اليومية. لم تكن هذه السيارة المُستعملة، ماركة أوبل برتقالية اللون، بها نظام تكييف. وأثناء شتاء "جورا" القارس، لم يتردد "ستيفان" في قيادتها للقيام بأعمال الخدمة والأنشطة الكنسية، بالإضافة إلى

استخدامها في العمل. أذهل استعداده للخدمة "ريتشارد" الذي كان يبتسم عندما يذكره وهو يرتدي قفازه ويذهب لقيادة السيارة في أي وقت يحتاجون إليه.

كانت زيارته في البيت تسبب لي الفرح، فقد توقفت كل علاقة لديه بماضيه. كان أمراً مُبهجاً أن نتبادل أطراف الحديث في سلام دون ضغط أو توتر. كان أمراً رائعاً أن أسمعه يتحدث بنبرة صوت حقيقية، حيث لا مجال للشك في أن حديثه هو مزيج من الكذب والصدق. كان منزله مفروشاً بأثاث حديث ويشع منه الدفء. لم يعد هناك آثار لموسيقى *الهارد روك*. فقد تخلص من كل الألبومات حتى لا يفتح مجالاً للعدو. وأصبح هناك على الرفوف ألبومات موسيقية أخرى بجانب الكتاب المقدس وكتب مسيحية أخرى. أصبح "ستيفان" يقرأ ويتأمل في الكتاب المقدس يومياً ليعرف مُخلِّصه وخطة محبته له. تعلم أن يثق في الله. كان ينهل من المصدر ــ يسوع المسيح ــ للحصول على قوة للثبات والاستمرار في الالتزام للإله الذي خلَّصه، وليسير بأمانة في طريق الحياة والنور. وكانت كلمة الله الثابتة، هي المرساة القوية والثابتة لنفسه، والتي كانت تعطيه الرجاء "الَّذِي هُوَ

لَنَا كَمِرْسَاةٍ لِلنَّفْسِ مُؤْتَمَنَةٍ وَثَابِتَةٍ، تَدْخُلُ إِلَى مَا دَاخِلَ الْحِجَابِ" (عبرانيين٦:١٩). وكنتيجة لتصميمه للتخلص من ماضيه، قرر بحسم ألا يتلاعب بأي شيء قد يجذبه لحياته القديمة. وقد تغيرت مبادئه وقيمه، وهذا التغيير العميق لم يأتِ منه شخصياً. ولم يكن مسألة اجتهاد أو رغبة في التركيز على قيم أخرى. بل كان بسبب سكيب الروح القدس لقيم الله داخل أعماق قلبه.

كان أصدقاؤه يتعجبون، ويمتلئون إعجاباً به عندما كانوا يروا عدد الساعات التي كان يُكرّسها "ستيفان" في علاقته مع الله، وفي دراسته باجتهاد لكلمة الله بمساعدة كُتُب التفسير. كان يقرأ كذلك كُتُباً في اللاهوت. نعم، قد أذهلني ابني الأكبر، الذي كان يقرأ في الماضي كتب الهزل وبعض صفحات قصص الإثارة، وعندما كنت أذكر أنه كان طالباً ضعيفاً فوق مكتب الدراسة، والذي لم يكن يدرس كما يجب، أندهش لما حدث في حياته من تغيير واختلاف! كان الله هو سبب تغييره فوق الطبيعي. فقد كان أمراً رائعاً أن أرى تغيير سلوكيات "ستيفان". ظل كما هو مُتزناً مُفكراً، لكن الرب حوّل حساسيته وسلبيته إلى حساسية عاملة واهتمام

وشجاعة وغيِّرة. فقد شكله يسوع مثل الخزف بين يدي الفخاري "أَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ كَهذَا الْفَخَّارِيِّ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ هُوَذَا كَالطِّينِ بِيَدِ الْفَخَّارِيِّ أَنْتُمْ هكَذَا بِيَدِي يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ" (مثل الصورة المرسومة في العهد القديم في إرميا ١٨: ٦).

إلى جانب عمله الذي يحتاج لكثير من المثابرة، كان يجد وقتاً لبعض الأنشطة الكنسية، حيث كان يشترك باجتهاد وبحماسة. وأثناء فترة العبادة، أُتيحت له الفرصة ليحكي اختباره للمرة الأولى. ورغم أنه كان خجولاً إلى حد ما، فقد كان اتجاه قلبه المتواضع قد أظهر مصداقية وقوة وعظمة حياة الله.

أصبحت حياة "ستيفان" الآن لها معنى. وهو الآن يعرف جيداً لماذا يعيش. فقد أعطاه الله هذه الحياة وخلقه على هذه الأرض لهذا الهدف. وجد هُويته ووجد أُسرته وحياته الاجتماعية وعمله وكثيراً من البركات الأخرى. ورغم صعوبة الحياة أعطاه يسوع سلامه وفرحه الحقيقيين.

نعم، فقد صنع يسوع كل شيء جديد. "إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ : الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا

الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا" (٢كو ٥: ١٧).

عندما عُدُت مع زوجي للحياة في سويسرا بسبب تغيير عمله، كنت أشعر بالارتياح الشديد لتخلصي من هذه المُعاناة. لأنه إذا لم يحدث هذا، فقد كنت سأحتاج للكثير من الحكمة للتعامل مع ابني، حتى لا يتسبب اقترابي منه جغرافياً في إزعاجه والتأثير الزائد عليه. وعندما أنظر للماضي أسأل نفسي: "كيف كنت سأحيا بدون مُخلِّصي؟" فقد حملني وأعطاني كل المصادر التي تساعدني على مواجهة الحياة.

مقاصد الله وطرقه رائعة. في الماضي لم أكن أفهم، لماذا سمح الله لابني بالانتكاسات، رغم كل الصلوات الحارة والتضرعات التي كُنت أقوم بها. لكن اليوم، بدأت أفهم سيادة وسلطان الله، وأن أفكاره ليست كأفكارنا ولا طرقه كطرقنا. وخلال الصبر والمثابرة، زاد الله في إيماني وقواه. وقد فتح ابني قلبه في النهاية للرب الذي كسَّر كل قيوده. واستطاع أن يمشي في الطُرق المؤدية لله. سمعت أحدهم يقول: "عندما تفشل طُرق البشر وكل إمكانياتهم، يبدأ الله عندئذ في إعلان طرقه". هذه العبارة جعلتني أُفكر ملياً. فعلى الرغم من

إدراك الإنسان لوجود الإله الحي، وعلى الرغم من استقباله للنصيحة أو الاختبارات، إلا أنه يذهب ليصنع مشيئته الخاصة، ويحيا خبراته الخاصة دون طلب الإله الخالق. فانتظار وبحث حكمة الله غير المحدودة أمر عظيم الأهمية. اكتشف "ستيفان" أكثر وأكثر نبع مُخلِّصه الذي لا ينضب.

طلب "ستيفان" المعمودية. وكان لهذا الخبر وقعه المُبهج على قلبي. اجتمع الكثيرون في ذلك اليوم المُبارك، والذي يسوده الفرح ومجد الله، في كنيسة "كوت أو في" للاحتفال معاً بهذه المُناسبة السعيدة، وكانت هناك فتاة أخرى ستُعمَّد أيضاً في نفس اليوم. أظهر القس "ريتشارد" وزوجته، وكل المقربين من "ستيفان" أثناء مراسم المعمودية فرح كبير مع أُسرتنا، أنا وزوجي والزوجين الجديدين "أنطوني" و "سوزان" اللذين كانا قد تزوجا من عام، وأختي "مونيكا".

المعمودية هي رمز كتابي للانتقال من الموت للحياة. التغطيس: النزول في الماء يمثل الموت مع المسيح، والخروج من الماء يُمثل القيامة مع المسيح. قيامة لحياة جديدة فيها الموت قد هزم. بهذا الطقس، كان "ستيفان" يشهد عن اختباره وقراره بالاستمرار في الحياة الجديدة والسلوك

في طاعة لله. وقد انبهرنا جميعاً من اختباره، الذي يُعلن عن تدخل قوة الرب في حياته. كل شيء في قلب واتجاه "ستيفان" كان يُعلن ربوبية الله. كان زوجي مذهولاً لصدق وتكريس ابني. وقال لي:

- إنه لأمر أصيل حقاً؟

إلهنا حي، إلهنا عظيم، إلهنا محبةِ. أعظم كنز أُعطي هنا على الأرض هو حياة المسيح.

ختم "ستيفان" اختباره بجزء قوي من آيات الكتاب المقدس، وقدم فيه تأمل عميق أثناء هذه المناسبة:

إِنْتِظَارًا انْتَظَرْتُ الرَّبَّ،

فَمَالَ إِلَيَّ وَسَمِعَ صُرَاخِي،

وَأَصْعَدَنِي مِنْ جُبِّ الْهَلاَكِ،

مِنْ طِينِ الْحَمْأَةِ،

وَأَقَامَ عَلَى صَخْرَةٍ رِجْلَيَّ.

ثَبَّتَ خُطُوَاتِي. (مز ٤٠: ١ – ٢)

بالإضافة للعمل الرمزي للمعمودية، رأيت أنه مُكافأة عظيمة لي وبركة من الرب. فقد كان قلبي المُشتعل يفيض بالتسبيح لله مُخلِّصي وربي.

أخيراً وجد "ستيفان" أباه. ولم يعد يتيماً بل ابناً لله. وقد فهم صلاح ولطف وحماية الآب. والآن يُمكنه أن يدعوه أبي ويعتمد عليه. بالتأكيد يحبنا الله كما نحن، لكنه لا يتركنا حيثما نكون. لذلك، يرفعنا ويرشدنا حتى نستمر ننمو في محضره.

- "ستيفان"، هل تذكر عندما حاولت أن أشرح لك عن قلب الله الأبوي. عندما كنا في المطبخ؟

- نعم، أتذكر، لقد حاولتِ رسم هذه الصورة لي، ولكني لم أفهم عندئذ. لكني الآن أرى ذلك.

فرحت برؤية عينيه اللامعتين ممتلئتين بالهدوء والسلام. ثم أضاف بحماسة :

- الآن، يمكنني أيضاً أن أقول إنني أمتلك كل شيء

يا لها من رحلة!

سألني "ستيفان" في أحد الأيام قائلاً:

- ما هي آيتك المُفضّلة؟

- يوجد الكثير من الآيات التي أحبها، وصعب أن أذكر لك واحدة بعينها.

كنت أكتب في مُذكِّرة صغيرة كل الآيات التي تلمسني

وتعجبني مع الشاهد، وأصنفها حسب الموضوعات. فقلت له:

- الآية المُفضّلة تعتمد على الموقف.

- اذكري لي الآية التي تأتي في ذهنك بشكل متكرر.

فتذكرت أحد الأجزاء الكتابية، التي كانت تُمثل دعماً وتشجيعاً لي في تلك المحنة التي كنت أمر بها وقلتها له. بعد عدة أيام، وصلتني لفة منه. كانت مُفاجأة وتساءلت عما كانت تحتويه. كانت هدية ملفوفة بشكل جميل، وجدت أنها لوحة من الخشب منحوت عليها آية كتابية بشكل رائع:

" أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ فَهُوَ يَعُولُكَ" (مز ٥٥:٢٢).

كانت هي الآية التي قلتها لابني، لقد كانت هذه الآية هي دليلي في أوقات الضعف والقلق طوال رحلة الأحزان. يا لها من هدية جميلة، تأثرت جداً بهذه الهدية. علقت هذه اللوحة بشكل دائم في حجرة المكتب لتكون دائماً أمام عيني. وبينما أكتب الآن هذا الكتاب، أستطيع رؤية هذه الكلمات، وأتذكر أن الله يحفظ وعوده. وبالطبع، استمر حتى الآن في إلقاء كل همومي على الرب، وهو يستمر في قيادتي في حياتي وفقاً لمشيئته.

"وَلكِنَّنَا فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا" (رو٨:٣٧).

الخاتمة

بداية هذه الحلقة في قصتنا تعود إلى سنة ١٩٩٢. وفي ذلك الوقت، كانت المخدرات لا تزال إلى حد كبير وباءً مُحرماً. كان المُدمن وعائلته يُعانون في صمت. فلم تكن المخدرات في قمة مشاكل المجتمع، ولم تكن أحد المسببات المُتعارف عليها لتدمير وحدة الأسرة. اليوم، المخدرات ليست في طور الاضمحلال ولا التراجع، بل هي بالتأكيد في مرحلة التقدم والازدياد. والأسوأ من ذلك، أن الأخلاقيات العامة أصبحت تقبلها أكثر وأكثر كأمر عادي، وأصبحت المخدرات متوفرة، وفي بعض الدوائر، أصبحت مقبولة. وأصبح الإعلام يتكلم عنها بشكل واسع. لكن النتيجة، أن الإعلام لم يشترك في الاتجاه الصحيح. فالمخدرات لا تزال تحمل الطبيعة التدميرية. والمأساة في الأسرة، لازالت موجودة مع نتائجها المُؤلمة من تدمير النفوس وانكسار القلوب. ولا تزال الآلام النفسية موجودة بشكل بشع.

بالتأكيد قد يبدأ الشخص بتعاطي المخدرات من تلقاء نفسه، أو نتيجة لبعض الفلسفات أو الديانات. والخبر السار

هو أن المسيحية ليست ديانة، وهي ليست حلاً ضمن بقية الحلول. فهي لا يمكن مقارنتها بأي شيء آخر. فالخروج من المخدرات إلى الشخص الذي يُعطي نسمة الحياة يذهب لأبعد من مجرد تحرير، بل هو الشفاء الوحيد. الإنجيل يُقدم حياة أفضل في يسوع المسيح، الذي أعطى حياته لمن يؤمنون به. فبذبيحته أعطانا إمكانية التصالح مع الله. وهو أعطانا الحياة الأبدية: "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يوحنا٣:١٦). وتأكيد الخلاص هو: "لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ. لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ" (أعمال٤:١٢). يا لها من محبة!

بالنسبة لعائلتنا، انتهت هذه المأساة، وأصبحت خلفنا بشكل مؤكد. لكن بالتأكيد، لا تزال الندبات تؤثر فينا، فنحن لا نستطيع تغيير حقيقة ما اختبرناه في هذا الأمر. لكن في نور المسيح، هذه الخبرة لها معنى آخر. الله الذي ليس سبب تعاستنا، يرغب في أخذ الخبرات الأكثر ألماً في حياتنا ويحوّلها إلى خيرنـــا، ولخير من حولنا ولمجده. تخرج من

الآلام والمعاناة بركات الله.

أثناء تلك السنوات العشر من المخدرات، حاول "ستيفان" الكثير من أنواع العلاج المختلفة، دون نجاح. لكن بمجرد أن أدرك أنه يحيا في عصيان لله، قرر أن يتبع الله ويؤمن به، وحصل على علاج كامل لنفسه.

حرر الرب ابني الأكبر من إدمانه للمخدرات ومن كل نتائجها. *وما يقوم به الله، لا يقوم به بشكل جزئي، بل يقوم به بالكامل.* أسبّح وأُمجِّد الله لأجل ما *فعله* لابني، وما *يفعله* اليوم، وما *سيفعله* في المستقبل.

والآن ابني لا يلمس المخدارت. ولا يشعر بالصراع الداخلي، ولم يعُد يحتاج للصراع والحرب ضد هذا الشر. لأنه بالشفاء، محى الله من ذاكرته المخدرات التي لم يكن مُمكناً محوها. وعندما قرأ هذا الكتاب، اندهش كثيراً لقراءة بعض الحكايات التي كان قد نسيها تماماً! والآن يمكنه أن يرى ويفكر في المخدارت، دون شعور بالحنين والرغبة لها ودون التعرض للتجربة. والآن، وفي سلام كامل أصبح حُراً، ويُمكنه العبور بالشوارع التي كان ذات يوم يسير فيها.

يمكنه مواجهة وباء المخدرات، والتي لم تعد تعني له شيئاً الآن.

أثناء حياتهما، لم يتوقف والداي أبداً عن الصلاة لبناتهما ولا لأحفادهما. وبنفس الطريقة، وطوال سنوات الحزن والألم، كانت صلواتنا لأجل مشكلتنا تصعد إلى الله. صلوات أفراد عائلتنا، وكثير من الرعاة والأخوة والأخوات في المسيح، وكثير من الكنائس المحلية والأصدقاء، وأصدقاء "أنطوني"، والكثير من الأشخاص الذين لم يكن "ستيفان" يعرفهم شخصياً. كل هذه الصلوات الكثيرة لم تبق بلا استجابة، بل استجاب لها الرب. وكل من رأى ابني قبل وبعد الإيمان، أنه استطاع أن يرى بذور كلمة الله تأتي بثمارها في قلبه الآن. ويمكنهم الاستماع لاختبار حياته الجديدة، وكيف أنه أمر مُشجِّع أن نرى مواعيد الله تتحق بين هؤلاء الذين يُصلُّون له. أذكر بشكل خاص عندما سؤل في كنيسته في "لاكوت أو فيري" والكنيسة المعمدانية في جنيف. للرب كل المجد!

– ماذا سيكون رد فعلك، إذا جربت مرة آخرى بالمخدرات؟

كان يُجيب بهدوء:

- أرى المخدرات كأي خطية أخرى، وبمجرد التفكير في أنني أُعصي الله، وأنني أُحزنه، وأنني أفعل ما يكرهه، يزيل هذا كل تجربة وكل رغبة عندي.

هذه الحكمة قد تبدو كحل ضعيف، لأن كلمة خطية في أيام مثل أيامنا، لم تعد أمراً كبيراً، حيث إن آذان الإنسان قد طمست وضل، بسبب مباديء العالم المُظلِّم، التي هي مضادة لمباديء خالقه. لكن من يسير مع الله يدرك ما معنى الخطية. الله يكره الخطية، لكن في محبته غير المتناهية، يغفر لهؤلاء الذين يعترفون بخطيتهم ويعودون له.

بالتزام وبكل حماسة وغيّرة على الحياة التي تليق بالله. يدرس الآن "ستيفان" في إحدى كليات اللاهوت في سويسرا. ورغبته هي أن يسلك في طريق تبعية الله، راغباً في أن يكون حيث يريده الله أن يكون. وأن يصبح سفيراً لمن فداه وبرره.

أعطاني ابني الإذن بكتابة قصته وشجعني على ذلك. ومن خلال قصته، يريد أن يقول لك، يا من لا تزال مُرتبطاً بالمخدرات:

- اختر الطريق الذي يقود للحياة، الحياة التي تستحق أن تعيشها. وهي طريق الخلاص الذي يُقدمه يسوع المسيح. طالباً المُخلِّص الوحيد القادر أن يُحررك من إدمانك. فهو وحده من لديه القوة لتحريرك وقيادتك في الحرية. استودع نفسك بين يديه. وهو سيُعيد بناء حياتك كما أعاد بناء حياتي. صدقني، الحياة في المسيح، هي أجمل شيء يمكن أن يحدث لك. وإذا تركت إرادتك بين يديه، فسيصنع من حياتك الضائعة شيئاً جميلاً. وهو يمد لك يده، أمسك بها! فهذا هو الكنز الحقيقي. في يسوع المسيح، ستجد صديقاً أميناً، يمكنك دائماً الاعتماد عليه في الحصول على العون والتعضيد.

الحل موجود في يسوع المسيح. فهو وحده المُحرِّر الحقيقي. حَرَّر "ستيفان"، ويمكنه أن يُحرِّرك أيضاً. فهذه المعجزة هي لك أنتَ أيضاً.

يقول يسوع، أعطني حياتك البائسة والمُعذَّبة وسأحوّلها لمجد الله. أدعوك باسمك... تعالى إليَّ. " تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (متى١١:٢٨).

أما بالنسبة لي، فقد شفى الرب شعوري بالذنب، وقد كان طريقاً طويلاً مليئاً بالأحجار أحياناً، وأحياناً أخرى بالمياه

الهادئة. وخلال تلك المحنة، تعلمت الصبر والمثابرة. فعمل الله في حياة ابني كان بركة عظيمة، وكانت استجابة الرب أبعد من صلَواتي. فهو لم يُحرِّر ابني فقط من المخدرات، بل أعطاه حياة جديدة أفضل، وأعطاه قوة ليسير في هذه الحياة الجديدة. فاستجابة الله كانت أكبر بكثير من توقعاتي وطلباتي.

"وَالْقَادِرُ أَنْ يَفْعَلَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ، بِحَسَبِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِينَا، لَهُ الْمَجْدُ فِي الْكَنِيسَةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ إِلَى جَمِيعِ أَجْيَالِ دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ" (أفسس ٣: ٢٠ – ٢١).

خبأت فوق هذه الصفحات، كلمات تنبُع مباشرة من قلب يكتب بتواضع وبدموع وفرح. ورغبتي الكبرى هي أن يكون لهذا العمل دور التحذير والوقاية، ولكن هل فات الأوان؟ إذاً فربما يكون هذا الكتاب مُفيداً ومُعيناً لأم أو أب لديهما ابن أو ابنة من مُدمني المخدرات، فقد تكون متأثراً بشكل مباشر أو غير مباشر بمشكلة الإدمان هذه، أتمنى أن يشجعك هذا الكتاب على طلب الرجاء الوحيد الحقيقي والدائم. يا ليت هذه الصفحات تزرع فيك الرغبة أن تستودع

نفسك بالكامل بين يديَّ المُخلِّص القادر على تعزيتك في آلامك. كل ما يُمكنني عمله هو دعوتك، والله القدير يستطيع القيام بالباقي فهو يَعِّد بذلك. ولك يا من وضعت ثقتك في الرب، يا من لم يقتل الحزن رجاءك. استمر وثابر في الصلاة والعبادة. وبالتأكيد سيستجيب لك الرب في وقته.

نعم، الرب يُحوِّل ما قد دمرناه إلى تُحفة فنية أصلية.

أَنَا (يسوع) هُوَ نُورُ الْعَالَمِ.
مَنْ يَتْبَعْنِي
فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ
بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ
(يوحنا ٨: ١٢).

شكر خاص

باعتراف كبير بالجميل، أُعطي الشكر لله، الذي أرشدني طوال رحلة كتابة هذه القصة، له وحده كل المجد.

شكر خاص لجميع أفراد أسرتي.

أشكر زوجي لأجل دعمه الثمين، ولأجل تواجده الظاهر، ولأجل إصغائه لي، والثقة التي أعطاها مرة أخرى لابن زوجته.

شكر لاستيفان، لأنه أذن لي بأن أكتب هذا الكتاب بأحداثه كما حدثت، وتشجيعه الكبير لي.

شكر لأنطوني لأجل دعمه ومساعدته وتقويته لأخيه.

شكر لكم جميعاً يا من صلّيتم، وطلبتم من الله لأجل "ستيفان"، سواء بشكل شخصي، أو مع بقية أفراد الكنيسة، أو مع أفراد الأسرة بصمت وفي الخفاء.

شكر لكم جميعاً يا من وضعهم الرب على طريقه، ليكونوا مرسى على الطريق المؤدي ليسوع المسيح.

شكر لكم جميعاً يا من ساعدتموني بكلمات التشجيع والمساندة.

شكر لكم جميعاً يا من شاهدتم عمل الله العجيب في حياتي، أقول لكم جميعاً من أعماق قلبي:

شكراً

لأن هناك الكثيرين والكثيرين، وخوفاً من أن أنسى أحدهم، لم أرد أن أذكر أسماءكم.

إصدارات مكتبة المنار

السعر	اســــــم الكتاب
٧٠,٠٠	الكتاب المقدس مع دراسات للنمو في الحياة المسيحية
١٠,٠٠	هل حقاً تكلم الله ؟
	جوني (نفذ)
	انهض وحارب (نفذ)
٧,٠٠	لكي أربح
٦,٠٠	العلاقة الحميمة مع الله
٤,٠٠	رحلة في دروب الحياة (نفذ)
١٢,٠٠	أعماق نفسي
٦,٠٠	تُرس الصلاة (نفذ)
٥,٠٠	لمسة رحمة لعالم جريح (نفذ)
٨,٠٠	الحرب الروحية
٣,٥٠	مع المسيح فوق الآلام
٨,٠٠	روعة الحياة بالإيمان (نفذ)
٣,٠٠	يشفي نفسي (نفذ)
٨,٠٠	القيادة (نفذ)

العهود السبعة		٨,٠٠
كيف تنتصر على الخطية	(نفذ)	٢,٥٠
المحبة حينما تبدو مستحيلة		٥,٠٠
أين أجد الوقت	(نفذ)	٦,٠٠
اكتشاف المصير	(نفذ)	٢,٥٠
العلاقات الصحيحة	(نفذ)	٧,٠٠
سر القط الضاحك (أطفال)	(نفذ)	١,٥٠
المسيح يحررك (كتيب)	(نفذ)	٠,٧٥
أسرار النجاح الروحي	(نفذ)	٦,٠٠
مصر المباركة		٧,٠٠
بالحقيقة أحرار		٨,٠٠
أُسس خدمة الشفاء		٨,٠٠
حنان الآب		٢,٥٠
رؤية المدينة بعيني الله		٦,٠٠
دعوة إلى حياة الطهر والنقاوة	(نفذ)	٨,٠٠
لغات المحبة الخمس عند الأطفال		١٥,٠٠
بيلي جراهام		٥,٠٠

أخرج من مخبأك	٢,٥٠
الديداخي – أي تعليم الرسل (نفذ)	٧,٠٠
الكنائس الشرقية وأوطانها جـ١	٨,٠٠
حقائق وأساسيات الإيمان المسيحي	١٠,٠٠
التقليد الرسولي	٨,٠٠
الكنائس الشرقية القديمة جـ٣	٩,٠٠
سر البغبغاء الثرثار (أطفال)	١,٥٠
المسيحيون الأوائل	١٠,٠٠
قصة ميلاد المسيح (نفذ)	١,٥٠
الانطلاقة	٦,٠٠
الأساس الكتابي للتربية في مرحلة الطفولة المبكرة الكتاب الأول: دليل المعلم	
الكتاب الثاني: معرفة الله أبينا	
الكتاب الثالث: معرفة يسوع، الله معنا	
الكتاب الرابع: معرفة يسوع بواسطة الروح القدس	
الكتاب الخامس: التأديب الذي في البر (٥ كتاب + ٣ شريط كاسيت + ٧ بوستر)	١٥٠,٠٠
نحو زواج أفضل	١٣,٠٠

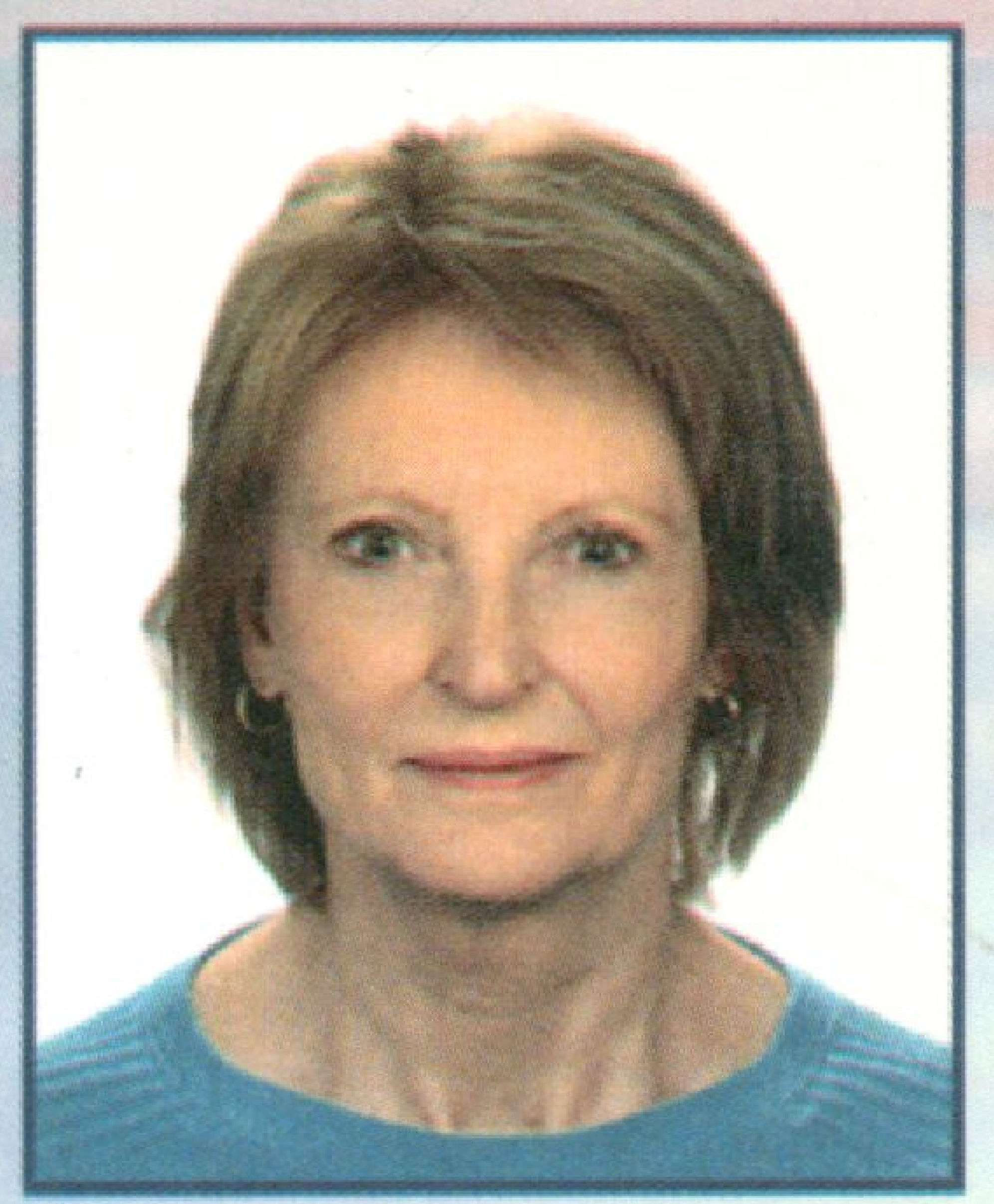
المرشد إلى مجموعات الشركة الروحية	٦,٠٠
إرشاد الصغار إلى الله (نفذ)	١٤,٠٠
إعادة بناء الحياة	٢,٥٠
أشتاق إلى الله	٢,٥٠
البحث عن السلام	٥,٠٠
أسرار وعجائب في إنجيل القديس مرقس (نفذ)	٤,٠٠
غيِّر عالمك بالصلاة	٨,٠٠
غريب عن المألوف	٣,٠٠
مناضل في سبيل الحرية (نفذ)	٨,٠٠
جورج موللر ـ الوصي على أيتام بريستول	١٠,٠٠
هدسون تايلور ـ في قلب الصين	١٠,٠٠
كوري تن بووم ـ مختبرة الصفح والغفران (نفذ)	١٠,٠٠
وليم كاري ـ ذهبتُ طائعاً (نفذ)	١٠,٠٠
إرعَ قلب طفلك	١٠,٠٠
آباء وأبناء (نفذ)	٤,٠٠
الخروج من دائرة الراحة	٦,٠٠
علامات على الطريق "تأملات عميقة"	٦,٠٠

وعود الله في الكتاب المقدس (نفذ)	٤,٠٠
** سلسلة شباب ملتهب : ١- تداوس "صاحب الوجوه المتعددة"	٥,٠٠
٢- يهوذا "الذي لم يستجب"	٤,٠٠
٣- بارثولماوس "لم يعرف الغش والرياء"	٤,٠٠
٤- متّى "الذي بذل لكي ما يتبع" ويعقوب الآخر "الذي كان دائماً هناك"	٤,٠٠
٥- توما "الذي أراد أن يرى"	٣,٠٠
٦- يوحنا "الذي كان يسوع يحبه"	٣,٠٠
٧- فيلبس "الرجل الذي سمع الصوت"	٣,٠٠
٨- سمعان القانوي "الذي تبع بقلبٍ من نار"	٣,٠٠
٩- أندراوس "الذي قاد الآخرين إلى يسوع"	٣,٠٠
١٠- يعقوب بن زبدي "الذي ربح إكليله" وبطرس "الذي سقط ثم صار شعلة من نار"	٤,٠٠
ساعة سقوط الأسوار	٣,٠٠
أجندة الصلاة اليومية	٩,٠٠
الرب راعيّ	٧,٠٠

كلمة الله كيف نحفظها في أذهاننا ؟ (نفذ)	٦,٠٠
الصلوات العامة للمناسبات الكنسية	٣,٠٠
ضد التيار (نفذ)	٨,٠٠
السيد المسيح في مصر	٢,٥٠
أعطني رزقاً (نفذ)	٢,٥٠
اُسلكوا بالروح	٤,٠٠
تبعية يسوع	٥,٠٠
طلب وجه الرب	٣,٠٠
الصلاة بالكلمة المقدسة ج١ (نفذ)	٨,٠٠
الصلاة بالكلمة المقدسة ج٢	١٠,٠٠
تدعيم الزواج	٨,٠٠
ادونيرام جدسون ــ الذهاب إلى بورما	١٠,٠٠
جوناثان جوفورث ــ باب مفتوح في الصين	١٠,٠٠
الصليب الطريق إلى التاج	٨,٠٠
ليليان تراشر ــ أعظم العجائب المصرية	١٠,٠٠
ماري سليسور ــ قدماً إلى كالابار	١٠,٠٠
نات سينت ــ على جناحي الصلاة	١٠,٠٠

صموئيل موريس ـــ رسول الإيمان البسيط	١٠,٠٠
إريك ليدل ـــ أغلى من الذهب	١٠,٠٠
رولاند بنجهام ـــ في قلب أفريقيا	١٠,٠٠
إيمي كارمايكل ـــ منقذة الجواهر الثمينة	١٠,٠٠
المرأة الخادمة.. لِم لا ؟ (نفذ)	١٢,٠٠
ويلفرد جرينفل ـــ صياد الناس	١٠,٠٠
القيادة مع الرب يسوع	٦,٠٠
أريد أن أكون مثمراً	٨,٠٠
١٠١ مبدأ للقيادة	٨,٠٠
العلاقات ـــ مفتاح علاقات المحبة	١٠,٠٠
أحببتك إلى المُنتهى	٥,٠٠
مسيرة لأجل الرب	١٢,٠٠
أيقِظوا الحراس	٥,٠٠
١٢٠ يوم صلاة مركزة لأجل النهضة	٥,٠٠
الأحلام المنهارة والوعود المُحققة	٨,٠٠
الكتاب القادر على تحويل الأمم	١٥,٠٠
اتبع المصلوب	١٣,٠٠

الصلاة الموجَّهة نحو الهدف	١٣,٠٠
رحلة في عقل إنسان	٦,٠٠
الطريق الجميل	١٢,٠٠
عندما تكون المعجزة هي الحل الوحيد	١٠,٠٠
أول ٥ دقائق بعد الموت	٧,٠٠
آخر ٥ دقائق قبل الموت	١١,٠٠
العارفون اسمك	١٢,٠٠
التحدث بكلمة الله	١,٠٠
لورن كننجهام ــ إلى العالم أجمع	١٠,٠٠
براذر أندرو ــ عميل الله السري	١٠,٠٠
كنيسة صحيحة في عالم مريض	١٢,٠٠
الفداء بالمسيح	٥,٠٠
لغات المحبة الخمس للمراهقين	٢٠,٠٠



جاكلين فافير

جاكلين فافير، سويسرية وفرنسية، ولدت فى سويسرا بمقاطعة "لوزان".

عملت فى كل مجال السياحة والتعليم.

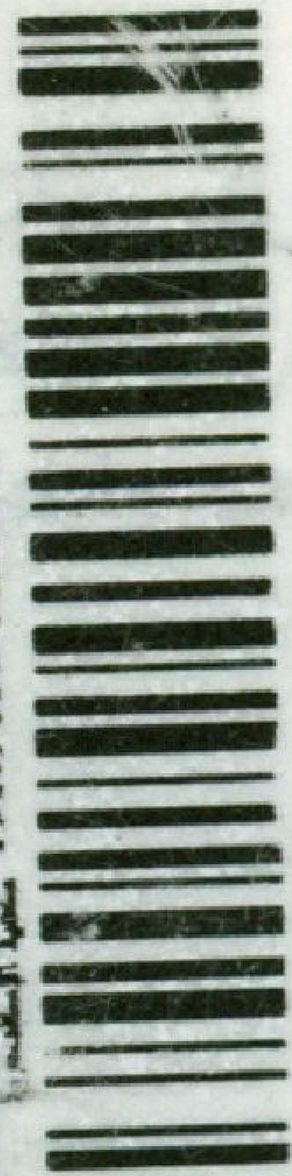
بعد أن أمضت عشرة أعوام فى فرنسا، ذهبت للاستقرار فى سويسرا حيث تعمل بنشاط مع إحدى الهيئات المسيحية. إلى جانب النسخة الأصلية لهذا الكتاب والمكتوبة باللغة الفرنسية، ترجم اختبارها أيضاً إلى اللغة الألمانية والإيطالية والروسية والرومانية.

م
إدمان المخدرات

كانت حياتها سهلة وسعيدة مثل الحلم الجميل، زوجها يحبها، وولدين رائعين يعيشان الآن حياة مستقلة، وأشياء مادية ووقتاً لتفرح بهم، ولكن فى يوم ما تغير طريق حياتها بشكل مُخيف لم تكن تتخيله، وانشق قلب الأم.

للأسف هذه القصة ليست من القصص الخيالية. فـ "جاكلين" حية و
الخاصة فى هذا الكتاب. كَتبَت هذا الكتاب مع ألم الذكرى، لكل شخص
نفس الطريق. ووجدت فى رحلتها عنصراً يساعدها أن تبقى على قيد ال

هذا الكتاب يحكى عن امل هذه الأم.





مكتبة المنار
Lighthouse Book Center
& Publishing House
www.lighthouseegypt.com